جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية
بالمنوفية

مقامات عيسى في القرآن الكريم
دراسة بلاغية مقارنة

الدكتور
السيد محمد السيد سلام
المدرس بقسم البلاغة والنقد

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

حقوق الطبع محفوظة

جامعة الأزهر
كلية اللغة العربية
بالمنوفية

مقامات عيسى
في القرآن الكريم
دراسة بلاغية مقارنة

الدكتور
السيد محمد السيد سلام
المدرس بقسم البلاغة والنقد

الطبعة الأولى

١٤١٧هـ - ١٩٩٧م

حقوق الطبع محفوظة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

الحمد لله الذى أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا والصلاة والسلام على من شق ظلام الجهالة بالهدى ونور العلم فكان هادياً وبشيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجا منيرا ، وعلى آله وأصحابه ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فدقائق الكلام والوقوف على أسراره ليس لها طريق إلا الروية والفكر وحسن التأمل ، ولن نهتدى إلى ذلك بطريق معرفة معنى الكلمة وإعرابها أو بنائها فحسب ، فهذا مدخل لبيان مغزاها وموادها .

وأس ذلك وطريقه هو دراسة التركيب الذى وردت فيه ، ومعرفة نسبها من سياقها الخاص فى الآية والعام فى السورة .

ومعلوم أن علائق الكلام وأنساب البيان كعلائق البشر وروابطهم ، وذلك فى عالم البيان أصدق منه فى عالم الإنسان .

وكما أنه لا يوجد اثنان بعقل واحد وفكر واحد - وهذا من قدرة العليم الخبير - فكذلك لا توجد كلمتان بمقصد واحد على الكمال والتمام ، بل إن الكلمة الواحدة يختلف مقصدها باختلاف مقامها وسياقها . .

ومن هنا تتجلى خصائص المعانى ودلالة الأداة فى كل سياق وردت فيه، وتتعدد المقامات بتعدد الأسرار الناجمة من اختلاف السياق .

ولا يمكن قصر هذه المقامات على شواهدها التى وردت فيها ، فأسرار الكلام تتجدد بتجدد العقول والأفهام ، وكلام الله - كما وصفه صلى الله عليه وسلم - « لا تنقضى عجائبه ، ولا تنفد عطاياه .

المهم أن يحاول الدارس سبر أغوار البيان ، ويقف على عضوية الكلمة وأهميتها بين الكلام ، وماذا يحدث لو استبدلت بغيرها ...

وبلاغة الكلام تتجلى فى وضع كل لبنة موضعها المناسب لها ، حتى يمكن التعرف على ما فيها من براعة وبلاغة تفقدها لو نزعت من منبتها .

وهكذا أحكم كتاب الله إحكاماً كما وصفه العليم القدير بقوله :

« كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير »

(هود ١)

ودلالة (عسى) لازمة لمضمونها ، والتحول فى تلك الدلالة ليس من ذاتها بل من حكم لها ومقتضى استدعاه السياق والمقام ، ولكل كلمة فى تركيبها مكانة ...

و(عسى) لها معان متفرقة فى بيان العلماء ، كل منهم يأتى على المعنى الذى يذكره بشاهد ، دون تحليل أو تعليل ، وكثير منهم يردد كلام غيره ، ولكن لابد من إبراز خصائص الأداة فى كل سياق باعتبارها من الروابط التى بها يتجلى مغزى السياق ، ويتسنى مفهوم مراده ...

= والفروق بين عطاءات المادة تحتاج إلى ضروب من النظر والثقافة والفكر ، وممارسة الأساليب ...

والنظر فى لغة الشعر وفهمه يمهد لذلك ، وكلام الله نزل بلغة العرب مع الاختلاف فى نظمه ورصفه وغير ذلك مما كان به إعجازه ...

والتدبر فيه والتأمل فى دلالة أدواته وكلماته وعباراته هو أساس فهم شرائعه .

وتلك دعوة إلهية حكيمة « أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها » (محمد ٢٤) هذا أدعى إلى التدبر من أن يقال تدبروا القرآن ...

ومن هنا كانت العناية البلاغية بالنظر فى أدواته متسقة مع تراكيبها ...

- وأهم ما فى ذلك التنقيب عن العلاقة الوطيدة بين الآية ، وسياقها العام والخاص ، تلك التى تبين تماسك النظم وعجيب الرصف .

والسورة من القرآن كالقصيدة من الشعر متعددة الأغراض متماسكة البناء ...

وإذا كنا نقول هذا فى كلام من نزل القرآن بلغتهم ، فالأحرى به أن يكون فى بيان العليم الخبير .

ودراسة الأدوات التى عهدناها فى هذا الباب دراسة خاطفة لا تقف عند السياق ، ولا تتأمل دقائق المعنى وعلائق البناء ، بل تكتفى بذكر المعنى والعمل ، كصنيع الزركشى فى الجزء الرابع من كتابه (البرهان فى علوم القرآن) ، وابن هشام فى كتابه (مغنى اللبيب عن كتب الأعاريب) ونحوهما ...

وهى ليست مُقصِّرة فى عملها ؛ لأنها غير متخصصة فى باب فقه الأساليب ، بل هى تُفْتِى بمعنى الأداة وعملها والإستشهاد على ما تذكر ...

وحسبها أن فتحت باباً من العلم جديراً بالطرق ، ثم تأتى الدراسات المتخصصة - كهذه الدراسة - لا لتكرر بيانها وكلامهم ، ولكن لتطبق وتبحث عطاء الأداة بين كل سياق ، وسر التعبير بها دون سواها ، ودورها فى السياق ، وقيمتها فى البناء وخصائص التعبير من حولها ...

ولو كان المقصود بيان المعنى والعمل فحسب لكفانا ماذكره الزركشى وابن هشام ...

ولكن لما كان المراد هو التطبيق والنظر وبحث نظم الكلام وأسرار البيان تجلت أهداف الدراسة ومقاصدها ، وحسبنا دليلا على ذلك ما قاله الإمام عبد القاهر :

« إن الألفاظ المفردة التى هى أوضاع اللغة لم توضع لتعرف معانيها فى أنفسها ، ولكن لأن لا يضم بعضها إلى بعض فيعرف فيما بينها من فوائد »(١)

* * *

ومن ثم عُنِيتْ الدراسة بالبحث فى هذا الباب وتخيرت منه (عسى) لما من استعمالات قائمة فى الكلام عن الله تختلف عنها فى الكلام عن البشر ، وكله فى القرآن الكريم ولكن تختلف مقاماته .

افتتحت هذه الدراسة بمدخل يبين أهمية هذا الباب ، باب دراسة الأدوات فى سياق الأساليب .

وعولت فى ذلك على الجهة الدلالية والصوتية ، فكما أن الكلمة لها شأن بين الكلام فكذلك الحرف له وقع فى الكلمة يلتصق بدلالتها ، وفى هذا قمة البلاغة التى بها ندرس أواصر الكلام .

(١) دلائل الإعجاز ٥٣٩ تحقيق فضيلة الشيخ محمود محمد شاكر .

ثم حاولت أن أبحث وقع (عسى) فى الشعر ، وهل يتفق مع وقعها فى القرآن الكريم، فطالعت قدراً من دواوين الشعراء ، فوجدت قلة استخدامها فى الشعر ولاسيما الجاهلى منه كقلة استعمالها فى القرآن الكريم .

وهى فى القرآن الكريم جاءت على نمط واحد هو اقتران خبرها بـ(أنْ)، وفى الشعر اقترن بها تارة وتجرد منها أخرى .

ومجىء القرآن الكريم على نمط بنائى واحد له دلالة تكشف الدراسة شيئا منها .

ولما كانت البلاغة تدرس معانى النحو أصّلت دلالة (عسى) فى كلام النحاة ليكون كالتقدمة لموقف البيانيين منها ، وبينت وجوه اتفاقها واختلافها مع (كاد) لما بينهما من تقارب .

ثم ناقشت معانى (عسى) فى بيان العلماء ، ووجه التسأوى بين مجيئها فى القرآن المكى والمدنى على السواء مع دعم ذلك بالشواهد التى تجلى المراد .

ثم وقفت عند المقامات البلاغية لدلالة هذه الأداة فقسمتها قسمين :

الأول : فيما ورد فى الحديث عن الله - جل ذكره - نحو :

(عسى الله) ، (عسى ربى) ، و (عسى ربكم) ... وهكذا .

والثانى : فيما ورد فى الحديث عن الخلق ، نحو :

(وعسى أن تكرهوا ... وعسى أن تحبوا ...) و (عسى ألا أكون ...) و (عسى أن ينفعنا ...) ونحو ذلك .

ولكل قسم منهما مقاماته التى استنبطها من شواهده مدعومة بتحليل الأساليب وإبراز خصائص الأداة بين كل سياق ...

وهى دراسة جديدة فى بابها لم أسبق إليها فيما علمت ، أردت بها تحديد دلالة الكلمة واختلاف مقاصدها فى كل مقام مع بيان مهمتها فى خدمة الأساليب .

والله من وراء القصد ، وهو نعم المولى ونعم النصير ؟

د/ السيد محمد السيد سلام

فى شعبان ١٤١٧ هـ

مدخل
أهمية دراسة الأدوات فى سياق الأساليب

الأداة هى الآلة، وكما أن أداة الشيء هى آلته ، وأداة المحترف هى آلته التى تقيم حرفته ، وأداة الحرب سلاحها فكذلك أداة الكلام هى واسطة العقد فيه ، وهى التى يشتشهد به من أجلها وهى التى تقيمه على الغرض المطلوب وتصل به إلى المراد ، اسماً كانت أو فعلا أو حرفاً .

لها مهمة نحوية ومهمة بلاغية تبحث عطاء الأسلوب مع كل أداة .

= ومعلوم أن الكلمة المفردة لاتؤدى معنى تاماً إلا مع سياقها ، ولكنها تصور لبنة فى بنائها الذى وردت فيه ، فتتآزر الكلمات جميعها وتؤدى الهدف المنشود ، هذا إذا كانت كلمة كسائر الكلمات التى هى عناصر فى السياق ، فما بالك إذا كانت أداة بارزة لها نظير لايصح وضعه مكانها ، ولايتسق البناء إلا بها ، وتكون هى العنصر البارز فى الكلام ، الذى يساعد على تصوير الحدث بوقعها وجرسها ، ومعناها الذى يلبس التعبير ثوبه الملائم له .

وبذلك تكون الأداة هى العنصر الأم بين عناصر البناء .

وإذا كانت الكلمات تتشابه من وجوه وتتقارب من وجوه فلا يمكن أن يرد فى العربية شعرها ونثرها كلمتان أو أداتان بمعنى واحد بل لابد

أن يكون هناك خيط دقيق يفرق بينهما ، ليس من جهة الاستعمال النحوى بل من جهة الدلالة فى السياق الجزئى والكلى .

والتأمل فى ذلك يكون أولا من الجهة الصوتية التى تبين وقع الكلمة شدة ولينا ، وتصويراً معنوياً للأشياء والأحداث يهدى إلى الدلالة البلاغية التى بها تتجلى مقامات الكلام وأغراضه ، وذلك أن الصوت يلازم المعنى ويومىء به ، شأنه شأن مناسبة الألفاظ لمعانيها كما هو معلوم من الفرق بين الخضم والقضم ـ مثلا ـ ، وأن الأول لأكل الرطب ، والآخر لأكل اليابس ، وقد درس ـ ابن جنى ـ وغيره من علماء اللغه هذا الباب وتوسعوا فيه ...

وكذلك الشأن لو تأملنا وقع أداة مثل (عسى) فى سياق الكلام وجدنا المعنى الذى يكن فى حروفها وتركيبها إنما هو جمع لما تفرق فى ثنايا سياقها .

فالعين حروف مجهور أشبع الاعتماد فى موضعه ، ومنع النفس أن يجرى معه حتى ينقضى الاعتماد(١) ، وهذا يدل على القوة والشدة فى الرجاء .

ومن ثم ذكر الراغب مراده فى كتاب الله بقوله « إن الله تعالى إذا ذكر ذلك يذكره ليكون الإنسان منه راجياً ، لأن يكون هو تعالى يرجو ، فقوله تعالى (عسى ربكم أن يهلك عدوكم) أى كونوا راجين فى ذلك (٢) .

ـ ومن صفات العين أنها بين الرخاوة والشدة تصل إلى الترديد(٣) .

وهذا ماتلمح مغزاه فى بيان العلماء بأن (عسى) للطمع والترجى ، وهذا الباب يحتاج إلى شدة إلحاح وكثرة طَرْق ، وهو أمر يتعلق بالبواطن ، والإخلاص له فيه باع كبير ، وبدونه ان يتحقق .

(١) ينظر كتاب سيبويه ٤/٤٣٤
(٢) ينظر المفردات للراغب (عسى)
(٣) ينظر كتاب سيبويه ٤/٤٣٥

ولما كان ذلك ساعد الحرف المهموس (السين) بعد العين من (عسى) على أداء المراد وأن الإلحاح يكون بالباطن لا بالظاهر ، وللنفس فيه دخل ، أى دافع الرغبة فيه ينشأ من نفس الإنسان .

ومن هنا يتجلى معنى القرب والإمكان فى (عسى) ، لأن الرجاء لا يكون إلا فى فى الممكنات ، وعدها علماء النحو من أفعال المقاربة الدالة على الرجاء .

ـ وقد حقق ابن فارس أصل حروف هذه الأداة حين قال : (عسوى) العين والسين ، والحرف المعتل أصل صحيح يدل على قوة واشتداد فى الشىء ، يقال : عسا الشىء يعسو إذا اشتد . .

ـ ولعله يقصد بذلك قوة الرجاء وشدة إمكانه مع وجود الترديد الذى بينه معنى الرجاء كما سبق .

وزادها ابن فارس تأصيلا بقوله : وربما اتسعوا فى هذا حتى يقولوا : عسا الليل إذا اشتدت ظلمته ، وهو بالغين أشهر ، أعنى فى الليل ، ويقال عسا النبات إذا غلظ واشتد ...

فأما (عسى) فكلمة ترج وهى تدل على قرب وإمكان(١) ...

ـ وقد بين قبل ذلك فى مادة (عسى) أن العين والسين أصلان متقاربان ، أحدهما : الدنو من الشىء وطلبه ، والثانى : خفة فى الشىء(٢) وهذا يحقق مانريد إثباته من شدة الإمكان مع قوة الرغبة والحرص .

= إذا كان هذا مراد الأداة فلابد أن يكون ثمة تقارب أو تمازج

(١) ينظر معجم مقاييس اللغة ٤/٣١٦
(٢) المرجع السابق ذاته .

واتساق بين عطاء المادة والسياق الذى وردت فيه ، وأنها تلم بأطراف معانيه ، وتأخذ بحجزه ولا يصلح غيرها مكانها .

وسوف نرى أنها بين شواهدها داعية إلى الحركة وبذل الجهد سواء فى باب الجهاد أو الدعاء أو التوجيه أو الاعتذار أو النصح أو تعليم الآداب أو نحو ذلك على ما يتجلى خلال الدراسة إن شاء الله .

* * *

وإذا انتهينا من بيان قيمة (عسى) وأنها لما يمكن أن يكون وهو جدير وخليق بأن يكون ، والطمع لازم لمضمون الكلام ، لا بالمطابقة ، فإن الرجاء فيها قد يزيد فيطلق على القرب ، فيكون مثل (كاد) ، وقد يشتد فيصل إلى اليقين فنستعمله حينئذ فى معنى (كان) ومنه :

عسى الغوير أبؤسا

لكن قال الرضى ، وأنا لا أعرف (عسى) فى غير كلامه تعالى لليقين(١) .

ومما يقوى ذلك العدول عن خبرها من الإسمية إلى الفعلية ...

هذا فى بيان دلالة (عسى) بين السياق .

أما : (لعل) فلا تصل إلى درجة اليقين ، بل هى تقوية للرجاء والطمع ، قال ابن فارس : (عل) العين واللام أصول ثلاثة صحيحة : أحدها : تكرر أو تكرير ، والآخر : عائق يعوق ، والثالث : ضعف فى الشىء ...

ثم قال : وأما قولهم لعل كذا يكون ، فهى كلمة تقرب من الأصل الثالث الذى يدل على الضعف ، وذلك أنه خلاف التحقيق يقولون : لعل

(١) ينظر نظم الدرر للبقاعى ٨/٤٠٤ ، ٤١٦

أخاك يزورنا ، ففى ذلك تقريب وإطماع دون التحقيق ، وتأكيد القول ، ويقولون عَلَّ فى معنى (لعل) .

ويقولون : لعلّنى ولعلّى . .

فأما (لعل) إذا جاءت فى كتاب الله تعالى ، فقال قوم إنها تقوية للرجاء والطمع ، وقال آخرون معناها (كى) .

وحملها ناس فيما كان من إخبار الله تعالى على التحقيق ، واقتضب معناها من الباب الأول الذى ذكرناه فى التكرير والإعادة ، والله أعلم بما أراد من ذلك(١) .

وهذا يدل على أنها تختلف عن (عسى) فى باب التحقيق مع أنها لا تخلو من الرجاء والطمع أيضا ، ومن ثم كانت لها مواطنها التى تناسب سياقها ، والتى بها يتحقق غرض لا يكون فى الكلام بدونها ، ولا يصلح غيرها مكانها أيضاً ؛ لأنها تأتى غالباً فى خواتيم الآيات نحو : لعلكم تتقون ، لعلكم تشكرون ، لعلكم تعقلون ، لعلكم توقنون ... وهكذا ، وقلما تأتى فيما عدا ذلك كما هو واضح من شواهدها فى كتاب الله تعالى فهى لا تعدو أن تكون مجرد إطماع لا تحقيق فيه ، وسياقات الكلام هى التى تحدد أغراضه ..

= وهكذا لو تأملنا كل الأدوات التى بها يتجلى شأ والكلام والفرق بين عطاءاته ، ففرق بين الواو ، والفاء ، وغير ذلك من أدوات العطف ، وكذلك الشأن فى أدوات الشرط ، والقسم والتمنى ونحو ذلك .

وكذلك الشأن فى الكلمات ذات الدلالة المختلفة نحو يشعرون ، ويعلمون ، وظنوا ، وحسبوا ، والخوف والخشية .

(١) ينظر معجم مقاييس اللغة ٤/١٢ ، ١٥

= ولما كانت السياقات تُدرس كثيراً من خلال الشواهد النحوية أو البلاغية على اختلاف المباحث ، وقلما يلتفت إلى أهمية الأداة ومدى مافيها من أهداف كانت هى السبب فى انبجاسها من الكلام ...

= ولما كان الأمر كذلك كان جديراً بالدراسات البلاغية أن تبحث قيمة الأداة وسر كثرتها ههنا وقلتها هنالك ، ودلالتها المعنوية فى كل موطن وردت فيه وعلاقتها بالمعنى الجزئى الذى تحيط به الآية ، والمعنى الكلى الذى نسجت منه عناصر سورتها، ولا يتجلى أمر المعانى بما فيها من اتفاق واختلاف واستنباط أغراض إلا بالتحليل الجزئى لعناصر البناء والإحاطة بالمعنى الكلى الذى به انتظمت السورة سلكاً واحداً على تنوع أغراضها وتعدد مجالاتها... إلا أنها لابد متراحمة متآزرة وآلات ذلك أكبر من أن تحصى ..

والقيمة التعبيرية فى بناء اللغة تبدأ من الحرف إن بجرسه ودلالته على المعنى ، أو الحدث ، وإن بمعناه ، ثم تنمو هذه القيمة التعبيرية مع الكلمة أو الأداة حتى يتساوق المبنى مع المعنى .

ولقوة ترابط الكلام وتأثير معنى الأداة دون سواها فى هذا السياق تلمح رائحة هذا المعنى فى السياق كله عند إنعام النظر ...

المهم أن الكلمة تتآلف مع السياق جملة كما تتآلف حروفها مع معناها ومرادها .

وبذلك تظهر مزية الكلام وينبلج المعنى الذى لاسبيل إليه إلا بذلك البناء متكاملا متداخلا لافضل فيه للفظة على انفرادها ...

= وتتجلى القيمة البلاغية لدراسة الأدوات بصورة أبين عند تحليل الشواهد ، والبحث عن الفرائد التى تفرد بها كل سياق .

عسى

بين التأصيل الشعرى والإستعمال القرآنى

نزل القرآن الكريم بلغة العرب ، ولكن له خصوصيات فى لفظه ونظمه ، فجاء استعمال (عسى) فى القرآن الكريم على اقتران خبرها بـ (أن) ولم يرد فى القرآن الكريم إلا كذلك ، قال تعالى : « فعسى الله أن يأتى بالفتح » ، وقال عز وجل : « عسى ربكم أن يرحمكم » .

= وجاء خبرها فى الشعر مجرداً من (أن) تارة ومقترناً بها تارة أخرى ...

ومن شواهدها مجردة من أن قول الفرزدق :

عسى بيدى خير البرية ينجلى
من اللزبات(١) الغبر عنها خُطُوبُها

وقوله :

عست هذه اللأواء تطرد كربها
علينا سماء(٢) من هشام تصيبها

وقوله :

وفى الأرض عن ذى الجور نأى ومذهب
وكل بلاد أوطنتك بلادى

---

(١) الواحدة ازبه : وهى الشدة .

(٢) السماء هنا : الغيث .

والشواهد من ديوان الفرزدق ، وأبى فراس ، وحاتم الطائى .

وماذا عسى الحجاج يبلغ جهـــده
إذا نحن خلفنا حفـــير زياد

وقول حاتم الطائى :

أوقد فإن الليل ليل قر والريح يا موقد ريح صر
عسى يرى نارك من يمر إن جلبت ضيفاً فأنت حر

ومن شواهد اقتران خبرها بـ(أن)

قول أبى فراس :

وأرى ذؤابا فى بيوت عتيبة بنوه وأهلوه بشد والقصائد
عسى الله أن يأتى بخير فإن لى عوائد من نعماه غير بوائد

وقول الفرزدق يمدح مالك بن المنذر بن الجارود :

عسى الله أن يرتاح لى فيكفنى برحمة من هو من أبى هو أرحم

= ومن خلال مراجعة الشعر والبحث فيه عن شواهد عسى واستعمالاتها رأيت قلتها قلة بينة فى الشعر الجاهلى وشعر صدر الإسلام، ووجودها على قلة أيضاً فى الشعر الأموى والعباسى .

وهناك دواوين جاهلية لم تأت فيها (عسى) مرة واحدة نحو : ديوان امرىء القيس ، وطرفة ، والخنساء، وشعر المفضليات ، والأصمعيات وتلك لاتعدو أن تكون نظرات فى الشعر ليست من باب الإحصاء لأن ذلك باب آخر يحتاج إلى دراسة مستقلة ...

وبالنظر فى معناها واستعمالاتها فى الشعر نلحظ أنها جاءت للطمع والترجى أيضاً .

وتزداد درجة الرجاء والطمع حين يأتى اسمها (لفظ الجلالة) كما سبق فى شاهدى الفرزدق وأبى فراس .

ولكن درجات الترجى والطمع ونحو ذلك فى القرآن الكريم أعلى وأقوم لما لها من ارتباط بمسائل الشرع ، من الحث على الجهاد والدعوة إلى التبتل ، والاعتذار ، والتذلل ونحو ذلك على مايتجلى بيانه إن شاء الله .

* * *

والقرآن جدد استعمالاتها حين اقتصر على مجىء خبرها مقترناً بـ (أن) ولم يأت مجرداً منها ؛ لأن هذا هو الذى يحقق فى معناها ترقب المطموع فيه ورجاء حصوله ، و(أن) تُخلِّص الفعل للإستقبال وبهذا يكون القرآن الكريم قد وضع لها قاعدة ثابتة بها تؤدى مهمتها وتستقيم دلالتها ؛ لأن الإطباع والترجى فى كلام الله يختلف عنه فى كلام البشر ، ولاسيما فى الشعر الذى يصور خيالات تصدق حيناً وتكذب أحياناً - وأصدق الشعر أكذبه - كما يقولون .

وتجديد القرآن استعمال بعض الأدوات لايتعارض مع نزوله بلغة العرب فمراتب الكلام تتفاوت ، وإذا كان ذلك كذلك فكلام اللطيف الخبير هو ذروة الكلام وصفوة البيان ، واستعمال تلك الأداة فيه وإنما هو تقويم وإصلاح وتدريب للنفس على التعلق الدائم بالله سبحانه ...

تأصيل الدلالة فى (عسى)

لما كانت الدلالة البلاغية تتنوع بتنوع تراكيب الكلام لغوياً وتستمد أهدافها من نظم الكلام وتأليفه كما قال الإمام عبد القاهر .

وأعلم أن ليس النظم إلا أن تضع كلامك الوضع الذى يقتضيه علم النحو وتعمل على قوانينه وأصوله .

لما كان ذلك كذلك رأيت أن أبدأ بموقف النحاة من (عسى) لأبين وجوه استعمالها عندهم ، وبلاغة الكلام فى تشبيههم لها بـ (كاد) ، والفرق بينهما لغة واستعمالا ، وإجرائها مجرى (كان) وعلاقتها بذلك .

قال ابن يعيش : (عسى) من أفعال المقاربة .

ومعنى قولهم أفعال المقاربة ، أنها تفيد مقاربة وقوع الفعل الكائن فى أخبارها ، ولهذا المعنى كانت محمولة على باب (كان) فى رفع الاسم ونصب الخبر ، والجامع بينهما : دخولها على المبتدإ والخبر ، وإفادة المعنى فى الخبر ، ألا ترى أن كان وأخواتها إنما دخلت لإفادة معنى الزمان فى الخبر ، كما أن هذه الأفعال دخلت لإفادة معنى القرب فى الخبر ، فمن ذلك (عسى) وهو فعل غير متصرف(١) .

(عسى) بين الحرفية والفعلية

ذهب بعض النحويين إلى أن (عسى) حرف لعدم تصرفها ولا معناها

(١) ينظر شرح المفصل لابن يعيش ١١٥/٧

فى غيرها ، وذهب الجمهور إلى أنها فعل لفظا ومعنى وهذا هو الصحيح(١) .

أما لفظا فللحاق الضمائر وتاء التأنيث الساكنة ، وأما معنى فلأنه إخبار عن طمع وقع للمتكلم .

— وقيل ماضى اللفظ والمعنى ؛ لأنه طمع وذلك حصل فى شىء مستقبل .

— وقيل ماضى اللفظ مستقبل المعنى ؛ لأنه أخبر عن طمع يريد أن يقع(٢) .

أى أنه جعل لفظها بلفظ الماضى لأن الطمع قد وقع وإنما المطموع فيه هو الذى يتوقع وينتظر .

وأدخلت (أن) على المطموع فيه لأنه لم يقع بعد ، وجردت أخواتها عن (أن) لأن خبرها محقق فى الحال إذ قد شرع فيه إلا « كاد » فإنها للمقاربة فى الجملة(٣) .

أى أن خبرها يكون مستقبلا فلا تدخل على الماضى ؛ لأنها للرجاء والطمع والماضى لا يطمع فيه ولا يرجى لحصوله ، ولذلك يكثر وقوع (أن) بعدها ويقل حذفها ، ولا يحذف إلا فى الشعر كما سبق .

ويلزم الفعل خبرها لكونه عوضاً من التصرف الذى كان ينبغى أن يكون .

(١) ينظر المفصل لابن يعيش ١١٦/٧ ، والجنى الدانى للمرادى ٤٦١ ومعترك الأقران للسيوطى ٦٢٤/٢

(٢) ينظر البرهان للزركشى ١٦٠/٤

(٣) ينظر نظم الدرر ٤١١/٨

وقال البقاعى « وأما لزوم (أن) فلما أريد من صرف الكلام إلى تأويل الاستقبال ، لأن (أن) تخلص إليه(١) » أى أن الغرض هو الدلالة على الإستقبال .

قال أبو البركات الأنبارى : « ولما كانت (عسى) أذهب فى الاستقبال أتى معها بـ (أن) التى هى علم الاستقبال »(٢) .

أما ترك تصرفها فلتضمنها معنى الحرف أى إنشاء الطمع والرجاء ، وقوله : أبؤساً وصائما (أى عسى الغوير أبؤساً) لتضمن (عسى) معنى كان فأجرى مجراه ، وقيل هذا شاذ ونادر ، ووضع أبؤساً موضع الخبر وقد يأتى فى الأمثال مالا يأتى فى غيرها .

ولما كانت للرجاء دخلها معنى الإنشاء ، فلم تتصرف ، لأن تصرفها ينافى الإنشاء(٣) .

(١) المرجع السابق ٨/٤١٣ ، ٤١٥
(٢) أسرار العربية ١٢٩
(٣) ينظر نظم الدرر /٤١٢ ، ولسان العرب (عسى) .

بين عسى وكاد

التقت (عسى) مع (كاد) فى الدلالة على المقاربة ، إلا أن المقاربة مع (عسى) تختلف عنها مع (كاد) مما يدل على أن لكل أداة نظما معيناً ، وتأثيراً فى السياق ودلالة على هـدفه وموضوعه ، وثمة فروق بينهما معنى واستعمالا :

فـ (كاد) ليست لها إلا مرحلة واحدة هى :

مقاربة وقوع الفعل ، وقع أو لم يقع ، يقال : كاد يفعل ، أى قرب ولم يفعل ، وما كاد يفعل ، ويكون قد فعل بعد إبطاء ، أى أنها وضعت لمقاربة وقوع الفعل على سبيل الوجود والحصول ، تقول كادت الشمس تغرب ، تريد أن قربها من الغروب قد حصل ، وهى أبلغ فى المقاربة من (عسى) .

قال أبو البركات الأنبارى : « هما وإن اشتركا فى الدلالة على المقاربة إلا أن (كاد) أبلغ فى تقريب الشىء من الحـال ، وعسى أذهب فى الاستقبال .. »(١) .

أما (عسى) فلمقاربة الأمر على سبيل الرجاء والطمع ...(٢)

ولقد بين البقاعى دلالتها من مستوى إلى مستوى حين قال فى حديثه عن (عسى) :

(١) أسرار العربية ١٢٩
(٢) ينظر شرح المفصل ٧/١١٩ ، ١٢٤

«... ومن ثم أتت للطمع والإشفاق ، وقد يزيد الرجاء فيطلق على القرب ، فيكون مثل (كاد) ، وقد يشتد فيصل إلى اليقين فتستعمله حينئذ فى معنى كان »(١) .

وهذا التحول فى دلالات الكلمة إنما هو عامل خارجى ليس من ذاتها بل من المقام والسياق ، وفى هذا دلالة على أن علماء اللغة يلحظون المقامات والسياقات فى دلالة المفردات .

= وكذلك تتفق (عسى) مع (كاد) فى إفاد المعنى فى الخبر ، وكونه فعلا ، وتخالفها فى حذف (أن) من خبر كاد ؛ لأن المراد قرب وقوعه فى الحال و (أن) تصرفه إلى الاستقبال ، فلم يأتوا به لتدافع المعنين .

وقد سبق بيان لزوم (أن) مع (عسى) وقلة حذفها .

كما أن (عسى) لا تتصرف بخلاف (كاد) لأنها يخبر بها فيما مضى وفيما يستقبل نحو : كاد زيد يقوم أمس ، ويكاد يخرج غداً ، أما (عسى) فهى للطمع ، وذلك يختص بالمستقبل فقط ، ومن ثم اختير له أخف الأبنية وهو مثال الماضى .

= ومن وجوه التشابه بينهما أيضاً :

حمل كل منهما على الآخر ، فتشبه (عسى) بـ (كاد) فينزع من خبرها (أن) كقول الشاعر :

عسى الكرب الذى أمسيت فيه

يكون وراءه فرج قريب

(١) ينظر الدرر ٨/٤٠٤

فلما كان معناها الذى هو الإشفاق والطمع قريب من معنى المقاربة فى (كاد) حذفت (أن) من خبرها حملا لها على كاد .

وتشبه (كاد) بـ (عسى) فيشفع خبرها بـ (أن) فيقال : كاد زيد أن يقوم .

وقد جاء فى الحديث « كاد الفقر أن يكون كفراً » ، وقول الشاعر يصف بيتاً :

﴿ وقد كاد من طول البلى أن يمصحا ﴾ بمعنى يذهب(١) .

أى أن كل واحد منهما يحمل على الآخر لتقارب معنييهما ، وطريق الحمل والمقاربة أن (عسى) معناها الاستقبال ، وقد يكون بعض المستقبل أقرب إلى الحال من بعض(٢) .

ــ وهكذا تتقارب الكلمات من وجوه وتتباين من وجوه ، ولا بد من وجود هذا التباين فى الدلالة من خلال الدراسة التطبيقية للأساليب ، تلك التى تبرز خصائص كل سياق ووجه المناسبة بينه وبين الأداة المستعملة فيه .

وقبل أن نقف عند الدراسة التطبيقية نحاول تجلية معانى (عسى) فى بيان العلماء باختصار ، لتكون مرآة للبحث :

(١) ينظر نظم الدرر للبقاعى ٨/٤١٣ : ٤١٤

(٢) ينظر شرح المفصل لابن يعيش ٧/١١٩ ، ١٢١٠

معانى (عسى) فى بيان العلماء

١ ــ أجمع كثير من العلماء كـ : سيبويه وابن سيده وابن منظور والبقاعى على أن (عسى) للطمع والإشفاق .

وجلى البقاعى بيانه بقوله : « مادة (عسى) بجميع تصاريفها تدور على الحركة ، وهذه بخصوصها (أى عسى) للإطماع » .

قال ابن يعيش : أى طمع فيما يستقبل وإشفاق ألا يكون(١) .

هــذا معنى وقبل أن ننصرف إلى غيره بين وجه الجمع بين الطمع والإشفاق ولماذا لم يكن الطمع والخوف وقد اقترنا فى كتاب الله سبحانه :

« ... يدعون ربهم خوفا وطمعاً » (السجدة ١٦)

والإشفاق فيه معنى الخوف وكلاهما عامل خارجى ليس من ذات المادة وإنما من الخائف أو الطامع .

ونلحظ أولا أن :

الطمع كما قال الراغب : « نزوع النفس إلى الشىء شهوة له ، وهو ضد اليأس وفيه حرص ورغبة »(٢) .

وذلك لا يتناسب مع الخوف ، لأن الخوف : توقع الضرر المشكوك فى وقوعه وهو يتعلق بالمكروه بخلاف الإشفاق فهو :

(١) ينظر كتاب سيبويه ٤/٢٣٣ ونظم الــدرر ٨/٤٠٣ ، ٤٠٤ وشرح المفصل ٧/١١٥

(٢) لسان العرب والمفردات (طمع) .

عناية مختلطة بخوف ، قال تعالى :

« وهم من الساعة مشفقون »(١) (الأنبياء ٤٩)

ومن هنا تتجلى عنايتهم بالاستعداد لها ، والعناية حين يصاحبها خوف تكون أقوى وأمكن ، كما أن الخوف فيه فزع وذلك لا يكون مع الطمع .

لذلك قالوا : هى طمع وإشفاق ولم يقولوا خوف ؛ لأن الإشفاق مأخوذ من حديث معين ، وفيه ضرب من الرقة والضعف الذى ينال الإنسان ، وذلك ما يتناسب مع كونها للرجاء كما سيأتى .

ذكرت ذلك لبيان ضبط قوة الكلمة فى الدلالة وأنها لما يمكن أن يكون ، وليس ذلك فى الخوف .

= ومن ثم نجد المناسبة بين الطمع والإشفاق .

وقد فسر الزمخشرى الطمع بوجهين فى بيان آية التحريم :

« عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم » (التحريم من آية ٨)

فقال : « عسى ربكم » إطماع من الله لعباده ، وفيه وجهان :

أحدهما : أن يكون على ماجرت به عادة الجبابرة من الإجابة بـ (لعل و عسى) ووقع ذلك منهم موقع القطع والبت .

والثانى : أن يجىء به تعليما للعبــاد وجوب الترجيح بين الخوف

(١) لسان العرب والمفردات (خوف) .

والرجاء(١) ... وليس المقصود بالخوف هنا الفزع ، لأنه لا يجتمع مع الرجاء على هذا المعنى ، بل يقصد به جانب الحرص والخوف ألا يكون ، وهذا هو معنى الإشفاق كما سبق .

٢ ـ قال الأزهرى : (عسى) حرف من حروف المقاربة ، وفيه ترج وطمع وهى من الله واجب ، ومن العباد ظن ، لأن العبد ليس له فيما يستقبل علم نافذ إلا بدائل ماشاهد .

٣ ـ قال الراغب الأصفهانى : (عسى) طمع وترج(٢) :

يلحظ أن الأزهرى قدم الترجى على الطمع ، فهل هذا التقديم فى اللفظ على وفقه فى النفس بمعنى أن الرجاء يدفع إلى الإطماع .

يمكن أن يكون الأمر كذلك على حد أن الرجاء توقع وأمل ، كما قال ابن منظور : والتوقع والأمل يطمع النفس فى حصول الأمر وعلى هذا إذا تقـــدم الرجاء على الطمع كان جانب التوقع أقوى من جانب الرغبة والحرص .

أما إذا تقدم الطمع (على حد بيان الراغب) كان جانب الحرص أقوى ، وهذا هو الذى يدفع إلى الأمل والتوقع .

وإذا نظرنا فى شواهدها التى ندرسها بعد ، لمحنا من خلال بيانها أن جانب الطمع بمعناه السابق (نزوع النفس إلى الشىء مع الحرص والرغبة) أسبق

---

(١) ينظر تهذيب اللغة ٣/٨٥ والمفردات (عسى) واللمع فى العربية لابن جنى ص ٢١

(٢) ينظر لسان العرب (عسى) .

من جانب الرجاء ، فحين يأتى التعبير بـ (عسى) فإنما يدفع إلى الرغبة وشدة الحرص أولا وتوقع الحصول ثانياً .

فإذا تأملنا الآيات من قوله تعالى :

« لا يستوى القاعدون من المؤمنين غير أولى الضرر والمجاهدون فى سبيل الله ... إلى أن قال سبحانه : « إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً »

النساء ٩٥ : ٩٩

وجدنا جانب الإطماع فى الخير والترغيب فى الجهاد والحث عليه مقدما على جانب الترجية ، لأن الرجاء كما قال أبو هلال العسكرى لا يكون إلا مع الشك ، ولا يكون إلا عن سبب يدعو إليه من كرم المرجو أو مابه إليه ...(١)

فإذا ما تقدمه جانب الحرص وتوقان النفس واستحضار عظمة الحق الذى لا يستجيب دعاء عبد دعاه عن ظهر قلب غافل ، وإذا ما حدث ذلك خفت حدة الشك ، وكانت أقرب إلى اليقين ، وبذلك تتجلى دلالة (عسى) داخل السياق وما فيها من معنى الإطماع للعباد الذى يكاد يصل إلى درجة اليقين ، كما قال كثير من العلماء (عسى) من الله واجب الوقوع).

ولا ريب أن هذا على سبيل التفضل ، فهو يكون كذلك إذا استماتت

---

(١) ينظر فروق فى اللغة ٢٣٥

النفس وبلغت أوجها فى الرغبة والتبتل ، والله - عز وجل - يدفعها إلى الرجاء لتكون كذلك ، وكأنه شيء متيقن من جانب الحق سبحانه ، أخرجه فى سورة الشك بالنسبة للبشر لتتجلى منازل الناس فى العبادة ، والرغبة فيما عند الله سبحانه .

أو جريا على عادة العرب كما قال الزركشى : « ولما كان القرآن قد نزل بلغة العرب جاء على مذاهبهم فى ذلك ، والعرب قد تخرج الكلام المتيقن فى صورة المشكوك لأغراض ...(١) .

ومن هنا يحسن فى معنى (عسى) تقديم الطمع على الترجى ، قال الخليل: « (عسى) فى الناس بمنزلة (لعل) وهى كلمة مطمعة »(٢) .

أى أن الشأن فيها أن تكون كذلك ثم يصحب هذا الإطماع الإشفاق أو الترجية يعنى مايدفع لذلك ؛ لأن الإطماع جانب نفسى يترتب عليه الرجاء والإشفاق .

وهذه بدايات تتجلى ممرتها خلال تحليل الشواهد واستنباط المعانى جملة وتفصيلا .

٤ — (عسى) كلمة تكون للشك واليقين ، قال الشاعر :

ظنى بهم كعسى وهم بتنوفة
يتنازعون جوانب الأمثال

قال ابن يعيش ظنى بهم كاليقين .

---

(١) البرهان ٤/١٥٩

(٢) العين (عسو) ٢/٢٠٠

أجمع على هـذا المعنى (الشك واليقين ابن سيده والفيروزأبادى والهروى ...(١)

والمقصود بالشك واليقين هنا ماقاله الزركشى : من أن هذه الألفاظ (لعل وعسى) لها نسبتان :

— نسبة إلى الله تعالى تسمى نسبة قطع ويقين .

— ونسبة إلى المخلوق تسمى نسبة شك وظن .. أى ترد بحسب ماهى عليه عند المخلوقين(٢) .

ويؤيد ذلك قول الفخر الرازى فى (عسى) : لاتدل على حصول الشك للقائل إلا أنها تدل على حصول الشك للمستمع(٣) ... وهذا كلام بيّن لا يحتاج إلى تبيان ...

٥ — ذكر المرادى أنها للرجاء والإشفاق مستدلا بقول الله تعالى :

« وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم ... » (البقرة ٢١٦)

والعلماء يفسرون الرجاء والإشفاق فى هذه الآية بأنه الرجاء فى المحبوب والإشفاق فى المكروه(٤) .

ولكن ليس حتماً أن يكون الإشفاق فى معنى (عسى) على هذه

---

(١) ينظر المحكم لابن سيدة (عسى) والقاموس المحيط باب الالف فصل العين ، وبصائر التمييز ٤/٦٦ ، وكتاب الازهية فى علم الحروف ص ٢١٧

(٢) البرهان ٤/١٥٩

(٣) تفسيره ٦/٣٠

(٤) ينظر البرهان للزركشى ٤/٣٨٨ وبصائر ذوى التمييز للفيروز أبادى ٤/٦٦

الشاكلة فقد يكون المقصود به إشفاق ألا يكون ، وفى ذلك مناقشات كثيرة من خلال الشواهد ودراستها بعد ذلك إن شاء الله .

* * *

وهكذا نلحظ أن المعانى التى جاءت لها (عسى) ليست لمعناها على انفراد بل لازمة لمضمون سياقها ...

وهذه المعانى ونحوها تعطى معنى الاستمرار الذى يدل عليه خبر (عسى) لأن المطمع والرجاء فيها ـ كما سبق ـ يكون فيما يستقبل ، والمراد بالقرب فى معناها إنما هو قرب إمكان لا قرب زمن ، وهذه الأمور تفهم من تحرير المعنى فى السياق ، والأداة هى دليل المعنى وآلته .

= وقبل أن نقف عند تحليل الشواهد واستنباط الخصائص تنظر فى مواطن (عسى) بين المكى والمدنى .

عسى
بين المكى والمدنى

ذكرت هذا المبحث حين رأيت أن (عسى) جاءت فى القرآن المكى بنفس العدد الذى جاءت به فى القرآن المدنى ، محاولا البحث عن شىء من سر هذا التساوى التساوى .

فقد جاءت (عسى) فى كتاب الله ـ عز وجل ـ ثلاثين مرة ، فى ست عشرة سورة ، ثمان منها فى المكى ، وثمان فى المدنى ، هذا بالنسبة لعدد السور التى وردت فيها وتصنيفها .

أما عن مواطن ورودها فقد وردت خمس عشرة مرة فى المدنى ، وخمس عشرة فى المكى .

اشتركت معها (لعل) فى ثمانى سور ، أربع منها مكية ، وأربع مدنية ، إلا أن ورود (لعل) فى المدنى أكثر من ورود (عسى) فيه ، فمثلا : وردت (عسى) فى البقرة ثلاث مرات فى آيتين بينما وردت (لعل) فيها سبع عشرة مرة .

وكذلك الشأن فى المكى ، فسورة الأعراف ـ مثلا ـ وردت فيها (عسى) مرتين ، بينما وردت فيها (لعل) ثلاث عشرة مرة ، وهى مكية .

وورود (لعل) فى القرآن الكريم على وجه العموم أكثر من (عسى) ، وإن كانت نسبة التحقيق فى (لعل) أقل من نسبتها فى (عسى) كما سبق فى بيان العلماء بأن لعل تقريب وإطماع دون التحقيق ، أما (عسى) فلما يمكن أن يكون وهو جدير وخليق بأن يكون .

= وإذا قارنا بين أول (لعل) جاءت فى القرآن الكريم وأول (عسى) كذلك على ترتيب المصحف ، وجدنا أحقية ذلك .

فـ أول (لعل) على هذا الترتيب جاءت فى الدعوة العامة إلى عبادة الله سبحانه : « يأيها الناس اعبدوا ربكم الذى خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون » (البقرة ٢١)

وهذا إطماع لهم وترغيب فى أمر عام ليس متيقناً تحقيقه لأنه للناس كافة على اختلاف أنواعهم وأجناسهم وعقولهم ...

وأما أول (عسى) فى القرآن الكريم باعتبار ترتيب المصحف أيضاً فجاءت فى دعوة خاصة لطائفة المؤمنين هى الدعوة إلى الجهاد ، وهو أشد أنواع العبادة .

ولم تأت بنداء عام كآية (لعل) ولكنها جاءت بفرض وإلزام كان التخلف عنه فضيحة فى الدنيا والآخرة .

قال تعالى : « كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئاً وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون » (البقرة ٢١٦)

فلما كان شيئا شاقا ، قال (وهو كره لكم) أى مكروه لكم .

لو تأملنا ذلك ألفينا أن منزلة الإطماع والترغيب فى الجهاد هنا قوية ، وأن مكافأته خليقة بأن تتحقق وهى الخيرية العامة فى ذاتها (وهو خير لكم).

ثم هذا الإنذار الذى ختمت به الآية (والله يعلم وأنتم لاتعلمون)

وهذا يناسب ما بُدئت به « كتب » ، أى أن تلك الكتابة مفروضة لامناص منها ، ومن حاد عنها وهو يقدر عليها فقد خلع ربقة الإسلام من عنقه ...

* * *

المهم أن نسبة (عسى) فى المكى تساوى نسبتها فى المدنى ، وهذا يرجع إلى تشابه أو تقارب المقاصد التى وردت فيها لو تأملنا ...

فمثلا وردت (عسى) ثلاث مرات فى سورة البقرة ، وثلاث مرات فى سورة النساء ، وهما مدنيتان .

ولذا نظرنا فى وجوه تشابه المقاصد أو تقاربها بين السورتين ، وجدنا تعدد المقاصد وإن كان عقد المعانى ونظمها مترابطا متناسقا ...

فسورة البقرة تبدأ بدعوة الناس كافة إلى اعتناق الإسلام ، ثم توجه دعوة خاصة لأهل الكتاب تشتمل على ترك الباطل والدخول فى الدين الحق ، ثم تعرض شرائع هذا الدين تفصيلا ، ثم تذكر الوازع الدينى الذى يبعث على ملازمة تلك الشرائع ، ويعصم عن مخالفتها ، ثم تختم بشأن الذين استجابوا لهذه الدعوة الشاملة لتلك المقاصد ، وبيان مايرجى لهم فى عاجلهم وآجلهم(١) ...

وهذه مقاصد السورة بصفة عامة ، أما الآية التى جاءت فيها (عسى) الأولى ، فقد جاءت فى شأن الجهاد وحكمه كما سبق .

وأما (عسى) الثانية فى السورة فقد جاءت فى الترغيب فى الجهاد بالنفس على الطريقة التى ستتجلى فى دراسة الآيات بعد .

= وكذلك الشأن فى سورة النساء وهى مدنية أيضاً وردت فيها (عسى) ثلاث مرات ، وتتفق مع سورة البقرة فى كثرة الأحكام .

ومن الأحكام المشتركة بين السورتين :

(أ) أحكام النساء ...

(ب) بيان حال أهل الكتاب والمنافقين .

(ج) مجيء (عسى) الأولى فيهما فى باب الكره ، ولكن آية البقرة كانت فى كره قتال خوفاً على النفس ، أما آية النساء فكانت فى كره معاشرة ، قال تعالى : « ... **وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيراً كثيراً** » (النساء ١٩)

وهذا أيضا ـ يتعلق بهدم حياة أو بناء حياة ، فالغرض من الآيتين فى السورتين الاستقامة على شرع الله .

أما (عسى) الثانية فى السورة فجاءت فى بث الأمن والطمأنينة فى نفوس المؤمنين حثاً لهم على الجهاد، وتحريضاً عليه « **فقاتل فى سبيل الله لاتكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلا** » (النساء ٨٤)

وجاءت الآية الثالثة فى بيان عفو الله عن المستضعفين ...

قال تعالى « ... **إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لايستطيعون حيلة ولايهتدون سبيلا ، فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً** » (النساء ٩٨ ، ٩٩)

---

(١) ينظر النبأ العظيم ١٦٣/د/محمد عبد الله دراز .

ولاريب أن ذلك كله مناطه الحث والإلهاب والترغيب فى خيرى الدنيا والآخرة ، ورجاء عفو الله سبحانه ...

علما بأن سورة النساء لم تذكر فيها (لعل) مما يدل على أن الأمور التى تحتاج إلى الدفع إلى الترجى والترغيب كانت نسبة التحقيق فيها قوية ، وإن كان طابع السورة العام فيه شدة .

وذلك لأن أهل الكتاب والمنافقين فى الزمن الذى نزلت فيه ... كانوا قد أوغلوا فى أمرهم مع المسلمين وزادوا فى إيذائهم عما كانوا عليه فى الزمن الذى نزلت فيه سورة البقرة وآل عمران ، فقوبلوا فى هذه السورة بما يليق بذلك من الشدة فى الخطاب،وأمر المسلمون فيها باستعمال الشدة معهم وكانوا يؤمرون فى سورتى البقرة وآل عمران باللين معهم والصبر على أذاهم(١) .

ولذلك جاءت (لعل) فى سورة البقرة سبع عشرة مرة بينما لم تأت فى سورة النساء ، وجاءت (عسى) هنا وهناك .

= هذا نموذج من طابع التعبير بـ (عسى) فى القرآن المدنى ، وأنها تأتى فى مواطن الشدة فى بيان الحق والحض على اتباعه .

* * *

ونأخذ نموذجاً من القرآن المكى ، ويتمثل فى آيات (عسى) فى سورة الأعراف باعتبارها أول سورة مكية وردت فيها (عسى) على الترتيب المصحفى .

فننظر أولا فى طابع السورة العام ، تلك التى ورد فيها التعبير بـ (عسى) مرتين ، وبـ (لعل) ثلاث عشرة مرة ، والطابع العام الذى نسجت عليه

---

(١) النظم الفنى فى القرآن الكريم ص ٧٦

السورة هو الإنذار والاعتبار بقصص الأولين وأحوالهم ، وقد أخذ المشركون فى هذا بطريق الترهيب والترغيب بعد أن أخذوا فى سورة الأنعام بطريق النظر والدليل(١) .

ولا ريب أن الإنذار فيه شدة ودفع إلى الحق ، والاعتبار فيه حث على الترجى والإطماع فى الخير ؛ لأن الذى يعتبر يأمل ويرجو أن ينتفع باعتباره وإلا فيكون كلا اعتبار .

ولذلك جاءت (عسى) الأولى فى السورة تبعث على الصبر وتمد بالأمل بعد أن بلغ اليأس مداه من قوم موسى .

ولا يصلح فى هذا السياق إلا التعبير بـ (عسى) لأنها هى التى تجمع بين الشدة فى التسلية ، والشدة فى الترهيب من الخروج عن الحق ، قال تعالى : « قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين ، قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فينظر كيف تعملون » (الأعراف ١٢٨ ، ١٢٩)

= وجاءت (عسى) الثانية فى السورة فى باب الزجر والدعوة إلى الإعتبار والنظر والتحذير من اقتراب الأجل ، والغفلة لازالت قائمة ، ومحلقة على القلوب .

فدلالة (عسى) فى السورة توافق طابع السورة العام .

ومجىء (عسى) فى القرآن المكى يسير على النهج الذى جاءت عليه

(١) النظم الفنى فى القرآن ١١٠

فى القرآن المدنى ، مع اختلاف الدلالة فى كل موطن ، ومن ثم تساوى مجيئها هنا وهناك ، والله أعلم بمراد بيانه .

وقلة التعبير بـ (عسى) يدل على قوتها فى مجالها ، وأن جانب الإمكان ، والتقريب فيها أقوى فى موطنه ، ومن ثم لا يمكن وضع (لعل) مكان (عسى) والعكس ، فلكل أداة مقامها الذى يناسب سياقها ، وهذا ما يتجلى خلال الدراسة إن شاء الله .

المقامات البلاغية لدلالة (عسى)

أولا : مقاماتها فيما ورد حديثا عن الله عز وجل

جاءت (عسى) فى الحديث عن الحق سبحانه وتعالى تارة بالإسناد إلى لفظ الجلالة (الله) وتارة بالإسناد إلى لفظ الربوبية (ربكم - ربى - ربنا)

وستتجلى فروق التعبير فى تحليل الشواهد حسب مقاماتها كما يلى :

المقام الأول

التسلية والحث على الجهاد ...

قال تعالى مخاطبا رسوله صلى الله عليه وسلم :

« فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلا » (النساء ٨٤)

ولما كان العنصر الأهم فى السورة ، هو بيان حال أهل الكتاب والمنافقين وشدة إيذائهم للمسلمين ، لما كان ذلك كذلك جاء الأمر بالقتال فيها على طريق الإلزام والتكليف ، وشُفع ذلك ببيان عظمة أجره ، قتل أو غلب :

« فليقاتل فى سبيل الله الذين يشرون الحياة الدنيا بالآخرة ومن يقاتل فى سبيل الله فيقتل أو يغلب فسوف نؤتيه أجراً عظيماً » (النساء ٧٤)

وتتوالى الآيات تحث وترغب إلى أن وصل الحض على طريق الأمر لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ بأن يقاتل فى سبيل الله ويحرضهم على ذلك ، والعلة هى (رجاء كف بأس المشركين ، فـ (عسى) هنا مستعارة للوعد)(١) .

أى أن هذا وعد بالفوز ووعد الكريم حتم ، وهذا معنى قولهم (عسى من الله إيجاب) أى الوعد بها من الله ـ عز وجل ـ محقق إذا شاء .

---

(١) التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ٥/٢٤٣

وهذا عنصر من عناصر السياق الجزئى للآية يتوافق من حيث المبنى والمعنى مع بيان الأجر العظيم لمن يقاتل كما سبق فى بيان الآية .

ثم انظر فى عناصر بناء الآية :

من :

الأمر بالقتال فى سبيل الله .

وحصر التكليف على النفس .

والأمر بالتحريض .

وإسناد (عسى) إلى لفظ الجلالة ، وما فيه من قوة وهيمنة ...

وتكرير لفظ (الشدة) معه « والله أشد بأساً وأشد تنكيلا » .

إذا تأملنا هذه العناصر وجدنا أسرار التعبير بها تهدف فى النهاية إلى شأو التسلية ، ولاسيما إذا كانت من الله سبحانه ، وقيمة الحث على الجهاد وبيان عاقبته على أى وضع تَمّ من انتصار أو هزيمة .

= ولكى نصل إلى علاقة (عسى) بهذه العناصر ، وتآزرها معها فى بيان المطلوب ، ولماذا لم توضع (لعل) موضعها ، نقف مع بيانها كما يلى :

نلحظ أولا التعبير بقوله سبحانه « فقاتل » دون فجاهد ، مع أنه جاء الأمر بالجهاد فى آيات كثيرة ، وجاء منها على سبيل الأمر للنبى - صلى الله عليه وسلم - قوله : « يا أيها النبى جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير » (التوبة ٧٣ ، ونفسها فى التحريم ٩) .

ولكن كان السياق هناك مجاهدة ، واستبدال الملاينة بالشدة والصرامة التى لا يصلح مع المنافقين سواها ...

أما السياق هنا فسياق تكليف بالقتال فى سبيل الله لا يحتمل أدنى تقاعس أو انتظار جُند ...

لذلك قال سبحانه (لا تكلف إلا نفسك) أى لا تحمل تبعة غيرك ، ثم عطف عليه أمرا آخر يحض المؤمنين :

(وحرض المؤمنين) وكلمة (حرض) تحمل فى طياتها تسلية المؤمنين وبث الطمأنينة فى قلوبهم ، لأن معناها كما قال الراغب :

« والتحريض : الحث على الشىء بكثرة التزيين وتسهيل الخطب فيه ، كأنه فى الأصل إزالة الحرض ... » أى الاقتراب من الهلاك ، وليس الهلاك فى حد ذاته ، وفى هذا قمة التأييد بنصر الله .

— ولم يأت التعبير بهذه الكلمة على سبيل الأمر إلا فى مواطن الشدة كما فى هذه الآية ، وقوله تعالى :

« يا أيها النبى حرض المؤمنين على القتال » (الأنفال ٦٥)

ولم ترد فى القرآن الكريم فى غير هذين الموطنين .

وسورة الأنفال تحكى وقائع بدر وتحطم كيد المشركين ، وتقوى شوكة المؤمنين ولو كانوا قلة ...

وكذلك شاهدنا فى سورة النساء جاء فيه التعبير بهذه الكلمة على طريق الأمر (وحرض) لشدة الموقف ، ومن ثم أسند الوعد بكف بأس الأعداء إلى لفظ الجلالة والقوة (عسى الله) مع ما فى (عسى) من قوة ترج وشدة إمكان وحركة كامنة فى دلالة (عسى) تلك التى تتوافق مع الأمر بالتحريض .

والتعبير بـ (يكف) تلك التى لا تجعل للمشركين حركة - مع قوة

بأسهم - تقابل حركة المسلمين ، الكامنة فى الأمر بالتحريض ، وفى التعبير بـ (عسى) الدافعة إلى الترجية والإطماع .

والتعبير بقوله (أن يكف) الذى به تتوقف حركة العدو بقدرة الله سبحانه ، و (... أقصى ما يتعلق به رجاء المؤمنين أن يتولى هو - جل شأنه - كف بأس الذين كفروا ، فيكون المسلمون ستارا لقدرته فى كف بأسهم عن المسلمين مع إبراز قوة الله سبحانه وأنه أشد بأسا وأشد تنكيلا ، وإيحاء هذه الكلمات واضح عن قوة بأس الذين كفروا يوم ذاك ، والمخاوف المبثوثة فى الصف المسلم ...)(١) .

ولكن بأس الله أشد وتنكيله أحد ، أى ان بأسهم أمام بأس الله كلا بأس .

ولم يقف التعبير بالشدة مع بأس الله فحسب بل تكرر مع تنكيله إياهم (وأشد تنكيلا) ، بما يدل على أن حركتهم توقفت أمام قدرة الله سبحانه التى تجلت على يد عبادة المستجيبين لرسوله ، لذلك عبر بـ (تنكيلا) ، والتنكيل (أصله : التعذيب بالنكال وهو القيد ، فعم ، والمقصود من الجملة : التهديد والتشجيع)(٢) .

أى تهديد المشركين تهديداً تتوقف معه حركتهم خوفاً ورهباً وتشجيع المسلمين تشجيعاً به يظلون مستعدين للجهاد متى دعوا إليه .

قال العلامة ابن عاشور : « وجملة (والله أشد بأساً وأشد تنكيلا تذييل لتحقيق الرجاء أو الوعد ... »(٣) .

---

(١) فى ظلال القرآن ٢/٧٢٥ (٢) روح المعانى للألوسى ٥/٧٥

(٣) التحرير والتنوير ٥/٢٤٣

ومن ثم فدلالة (عسى) تستجمع أطراف الكلام بتآزرها مع السياق الذى يساندها فى إبراز المراد .

* * *

الشاهد الثانى من شواهد هذا المقام ، جاء فى سورة النساء أيضا على مقربة من الشاهد السابق وضعاً ومعنى ، فقد جاء بعده بخمس عشرة آية وهو متعلم له من جهة المعنى والبيان ؛ لأنه فى باب الجهاد أيضا ولكنه فى سياق التفرقة بين القاعدين من غير أولى الضرر وبين المجاهدين فى سبيل الله واستثناء المستضعفين ، وإطماعهم فى عفو الله ومغفرته وتعويضا لهم عما هم فيه .

قال تعالى :

« إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً »

(النساء ٩٨ ، ٩٩)

فهذا السياق امتداد للسياق السابق بما فيه من الحث على الجهاد والترهيب من القعود لغير عذر ، وبيان الفرق بين المنزلتين ، وطمأنينة المستضعفين وفى نيتهم الجهاد إلا أنهم لا يستطيعون حيلة ، ولا يهتدون سبيلا .

فسياق (عسى) هنا يجمع بين ترهيب وترغيب .

ـ الترهيب يحمل الاستكبار (فيم كنتم) ، والذلة والهوان (كنا مستضعفين فى الأرض) ، والتأنيب (ألم تكن أرض الله واسعة) ، والوعيد (فأولئك مأواهم جهنم ...) .

كل هذا لأولئك المتقاعسين حرصاً على أموالهم وإشفاقا على أنفسهم وبقدر مافى هذا الترهيب من قوة زجر يكون :

ـ الترغيب فى رجاء عفو الله ومغفرته ورحمته للمستضعفين من الرجال والنساء والولدان ، وذلك بإسناد فعل الرجاء والطمع وتحقيق العفو ، إلى اسم الجلالة (عسى الله أن يعفو عنهم ...) لأن العفو فى هذه المواقف لا يفعله إلا مهيمن ومهاب .

ـ فبقدر ما ارتجفت واهتزت نفس الظالمى أنفسهم ، اعتلت نفس المستضعفين حقاً عن الهجرة تعويضاً لهم من الله سبحانه ..

= الارتجاف يصور الاستكبار والذلة والهوان وموقف الملائكة منهم ..

= والطمأنينة ورفعة الشأن تصوها (عسى) بإسنادها إلى اسم الجلالة ولزوم عفو الله ومغفرته (وكان الله عفواً غفوراً) أى كان ولايزال .

= ولكن سر التعبير بـ (عسى) دون القطع بالعفو عنهم كأن يقال : (فأولئك عفا الله عنهم) ، وهو واقع لا محالة ، أنه من وعد الذى لا يخلف وعده ... ؟

أجاب عن ذلك الزمخشرى بقوله :

« فإن قلت : لم قيل (عسى الله أن يعفو عنهم) بكلمة الإطماع ؟

قلت : للدلالة على أن ترك الهجرة أمر مضيق لا توسعة فيه ، حتى إن المضطر البين الإضطرار من حقه أن يقول : (عسى الله أن يعفو عنى فكيف بغيره »[1] .

لذلك أتبع الحق سبحانه هذه الآية بالحث على الهجرة وبيان عظمتها فقال جل شأنه : « ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيراً وسعة ... » .

ـ والتعبير بأسلوب الرجاء (فأولئك عسى الله ...) يتوافق مع التأنيب السابق للقاعدين من غير أولى الضرر ... فكلاهما فى بيان عظمة الهجرة ، وبيان خطر تركها من غير عذر .

وهذا مايتداعى السياق وتتعاقب العبارات من أجله .

ثم انظر إلى التوازن بين ختام الموقفين ، موقف القاعدين من غير عذر ، والقاعدين بعذر .

هناك : (فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً) .

وهناك : (فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم وكان الله عفواً غفوراً).

هناك قطع بأن مأواهم جهنم ، وهنا نزلوا منزلة الراجين مع تحقيق الوعد لبيان عظمة الهجرة وخطر تركها ، وتضييق دائرة الأعذار .

هناك « ساءت مصيراً » أى مصيرهم الدائم أسوأ مصير ، وهنا « وكان الله عفواً غفوراً » وهذا يبين أن المصير هناك دائم وشاق ، والعفو هنا عظيم وعام لذلك قال سبحانه « عفواً غفوراً » فجمع لهم بين العفو

---

(١) الكشاف ١/٥٥٧

والمغفرة ؛ لأن العفو معناه : إزالة الذنب ، والغفران معناه : الصون من مس العذاب(١) .

ومن ثم كان العفو سابقا على المغفرة إذا ما اجتمعا (ومعنى هذا أنه يمحو ذنبهم ويزيل أثره أصلا ورأساً ، بحيث لا يعاقب عليه ولا يعاتب ولا يكون بحيث يذكر أصلا ، ولعل العفو راجع إلى الرجال ، والغفران إلى النساء والولدان)(٢) .

وأُرجِّحُ هذا لأن كلمة (العفو) فيها قوة تناسب شأن الرجال ، والمغفرة فيها لين ورحمة تناسب شأن النساء والولدان ...

وبهذا يتبين أن منزلة هؤلاء فى الرحمة تعدل منزلة أولئك فى العذاب .

أى أن المغفرة لهؤلاء قائمة مقام العذاب لهؤلاء ...

وفى معاتبة القاعدين والعفو عن المستضعفين تسلية لرسول الله صلى الله عليه وسلم وترغيب للمسلمين فى الهجرة والجهاد وبيـــان ما فيها من خير ونفع .

الشاهد الثالث من شواهد هذا المقام :

قوله تعالى حكاية عن سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ وقومه بعد أن وعد فرعون بقتل الأبناء واستحياء النساء وإبراز القهر والغلبة :

« قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله

---

(١) ينظر المفردات (عفا ـ وغفر) .
(٢) ينظر نظم الدرر ٥/٣٧٥

يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين قالوا أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعـــد ما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ويستخلفكم فى الأرض فلينظر كيف تعملون »

(الأعراف ١٢٨ ، ١٢٩)

وردت (عسى) فى سورة الأعراف مرتين اختلفت دلالتها فيهما مع مقاصد السياق ، فمقامها هنا مقام تسلية وتحريض على الطاعة ، ومقامها هناك ـ كما سيأتى ـ مقام دعوة إلى النظر والاعتبار ...

وهذه المقامات مقامات جزئية إلا أنها تتفق مع الإطار العام والبناء الكلى للسورة ، ذلك الذى قام على الإنذار والاعتبار بقصص الأولين ، وأحوالهم كما سبق .

ولكن الملحظ : لماذا لم تذكر (عسى) إلا فى قصة سيدنا موسى مع قومه فى هذه السورة هنا وفى التعقيب على القصص التى وردت فيها الدعوة إلى النظر والاعتبار فى (عسى) الثانية فى السورة ، بينما تفرقت (لعل) فى ثنايا السورة ، فجاءت فى قصة آدم ، ونوح وهود ، وشعيب وقصة موسى أيضا . ؟

= ويمكن أن يكون جواب ذلك أن (عسى) يعبر بها فى الوعد المحتوم وإن تأخر قليلا أو كثيرا ، وقد حدث أن أهلك الله عدوهم وكتب النصر لعباده الطائعين .

وافتراب الأجل فى الشاهد الثانى (وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم) واقع لا محالة ... وسيأتى فى موضعه من الدراسة إن شاء الله .

ـ أما (لعل) فتأتى فى المواطن التى قد يتحقق فيها الفعل وقد لا يتحقق .

فمثلا عقب شاهدنا ههنا مباشرة فى تسلية سيدنا موسى لقومه جاء قوله تعالى : « ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين ونقص من الثمرات لعلهم يذكرون » .

ومع ذلك لم تؤثر فيهم الآيات والعبر وظلت قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة (بل زادوا عند هذه الآيات عناداً وانهماكاً فى الغى[1] ...) .

وبذلك ندرك فرقا بين دلالة (لعل) ، ودلالة (عسى) وأن الرجاء فى الأولى محتمل ، وفى الثانية محقق .

= والدليل على أن التحقيق فيها أقل من (عسى) وهذا مناسب لوضعها ، وسياقها ـ أنها لم تسند إلى لفظ الجلالة فى القرآن الكريم كله إلا مرة واحدة هى قوله تعالى :

« لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً » (الطلاق ١)

أما عسى فأسندت فى أكثر مواضعها إلى اسم الجلالة (الله) والربوبية (ربى ـ ربنا ـ ربكم) .

وحين تسند إلى اسم الجلالة يكون التحقيق فيها تحقيقاً كلياً : « عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا » ، « عسى الله أن يأتى بالفتح » ، « عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً » ، وقد تحقق ذلك كلية .

= وأما (لعلكم تتقون) أو (تشكرون) أو (تهتدون) ... إلخ

(١) تفسير البيضاوى ١٣٦

فلم يحدث على وجه الكمال ، ولهذا تكثر (لعل) لأنها للإطماع والترغيب ، وتقل (عسى) لأنها لذلك مع التحقيق أو شدة التقريب .

ولم تأت (عسى) فى قصة سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ مع قومه فى هذه السورة إلا فى هذا الشاهد الذى معنا ، بينما جاءت (لعل) فى ثناياها ست مرات ، لأن هذا المقام الذى جاءت فيه (عسى) هو مقام التسلية وتحقيق النصر ، قرب أم بعد ، فقد (روى أن مصر إنما فتح لهم فى زمن داود عليه السلام[1]) ، المهم أنه تحقق ماوعد الله به .

قال الزمخشرى : (« عسى ربكم أن يهلك عدوكم » تصريح بما رمز إليه من البشارة قبل وكشف عنه وهو إهلاك فرعون واستخلافهم بعده فى أرض مصر[2]) .

وسيدنا موسى ـ عليه السلام ـ لم يكشف لهم هذه الحقيقة إلا بعد أن عظم خوفهم من تهديد فرعون ، وصرحوا بذلك (قالوا أوذينا ..) ، قال أبو حيان : « قيل : ولا يدل قولهم ذلك على كراهة مجيء موسى ؛ لأن ذلك يؤدى إلى الكفر ، وإنما قالوه ، لأنه كان وعدهم بزوال المضمار ، فظنوا أنها تزول على الفور ، فقولهم ذلك استعطاف لا نفرة[3]) .

أى أنهم لما جاءهم موسى ـ عليه السلام ـ لاذوا به ، ولجأوا إليه ليخلصهم من ذل فرعون ، وكانوا مستضعفين تحت قبضته وسلطانه ، فأخذ بأيديهم وشد أزرهم ، وعلقه برحمة الله ، صاحب القوة والبطش ، ولذلك

(١) ينظر تفسير البيضاوى ١٣٦
(٢) الكشاف ١٠٥/٢
(٣) البحر المحيط ٣٦٨/٥

قال : (عسى ربكم) ولم يقل عسى الله ، لأن الموقف موقف استدلال ، وضعف ، فأراد أن يقوى يقينهم ، ويربى قلوبهم على التعلق بالله ، والتضرع إليه ، وأن ينشئها على ذلك فلا تقنط من رحمة الله ، بل تتهيأ لأوامر النبي حين قال : « استعينوا بالله واصبروا » .

ولم يقطع بإهلاك العدو واستخلافهم فى الأرض بل (جاء بفعل الرجاء دون الجزم تأدباً مع الله تعالى وإقصاء للاتكال على أعمالهم ليزدادوا من التقوى والتعرض إلى رضا الله تعالى ونصره)(١) .

ومرحلة التربية على الشيء لا يصلح معها القطع ، ولذلك قال (عسى ربكم) تسلية لهم ، وتعليمهم رجاء الله الذى بيده ملكوت كل شيء ، لذلك كان قوله (عسى ربكم) ناظراً إلى قوله (إن الأرض لله ...) وقوله (ويستخلفكم فى الأرض) ناظراً إلى قوله (والعاقبة للمتقين) وهى : الفتح ، والظفر ، والنصر على الأعداء والعاقبة المحمودة فى الدنيا والآخرة)(٢) .

وبذلك تجاوز الموقف مرحلة التسلية إلى مرحلة الإطماع ، والترغيب ، والتحريض على الطاعة لله ليكون لهم النصر وحسن العاقبة .

وختمت الآية بقوله تعالى (فينظر كيف تعملون) ترغيبا فى هذه العاقبة الطيبه ، وترهيباً من سوء العمل الذى يؤدى إلى خلاف ذلك ، والاستخلاف فى الأرض ما هو إلا ابتلاء واختبار ، فالتسلية وتقوية الرجاء وبث الطمأنينة ، والتطميع فى قدرة الحق سبحانه ، تجلت من دلالة (عسى) بين

(١) التحرير والتنوير ٦٢/٩
(٢) ينظر تفسير الرازى ٢٢١/١٤

سياقها ، فهى وإن كانت عنصراً فى السياق إلا أنها هى العنصر الأم الذى يمسك بزمامه ، لأنها لو حذفت من الكلام لما تحققت دعوى الاستجابة إلى الصبر ، والاستعانة بالله ، والتسلية التى بها يقوى الرجاء شيئا فشيئا حتى يصل إلى مرحلة اليقين ...

* * *

الشاهد الرابع فى هذا المقام :

التسلية فيه تسلية مؤانسة وزع إلف ومودة ، والجهاد فيه جهاد النفس من النفور ليتم التحاب والتواد ، وقد تم بقدرة الله سبحانه ، وهنا تكمن دلالة (عسى) فى ربط القلوب ، وتحقيق التآلف على كلمة الدين بما فيها من وعد وإطماع .

قال تعالى :

« ربنا لا تجعلنا فتنة للذين كفروا واغفر لنا ربنا إنك أنت العزيز الحكيم ، لقد كان لكم فيهم أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الإخر ومن يتولى فإن الله هو الغنى الحميد عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة والله قدير والله غفور رحيم » (الممتحنة ٥ : ٧)

الغرض العام من السورة : نهى المسلمين عن موالاة الأعداء من المشركين بعد واقعة حاطب بن أبى بلتعة - وهى معروفة - والغرض الخاص لشاهدنا فيها :

— تسلية المؤمنين بما يدور فى نفوسهم من عـــداوة أقربائهم من المشركين ، وتخفيف الحق سبحانه وتعالى عنهم ، بعد أن استجابوا لأمر الله واقتدوا بإبرهيم - عليه السلام - والذين معه فى التبرؤ من أقربائهم المشركين ، ولا زال وجْد المؤمنين يلاحقهم والشوق يفارقهم لما جبلوا عليه من حب ذوى القربى ... وعلم الله - تعالى - ذلك فخفف عنهم بهذه الآيه : « عسى الله أن يجعل بينكم وبين الذين عاديتم منهم مودة » ثم فعل ذلك بأن أسلم كثير منهم ، وصاروا لهم أولياء وإخوانا وخالطوهم ونا كحوهم(١) .

— والسر فى التعبير بلفظ (عسى) أحد أمرين :

١ - الوعد من الله سبحانه على عادات الملوك حيث يقولون فى بعض الحوائج : عسى أو لعل ، فلا تبقى شبهة للمحتاج فى تمام ذلك(٢) .

وقد يكون ذلك الرمز منهم أعظم من القطم من غيرهم ، لما لهم من العظمة التى تقتضى النزاهة عما يلم بشائبة نقص ، وذلك أعظم فى الإيمان بالغيب لأن الوعود لا تزال بين خوف ورجاء ...(٣) .

٢ - أو قصد به إطماع المؤمنين ، والله تقدير على تقليب القلوب وتغيير الأحوال ، وتسهيل أسباب المودة (والله غفور رحيم) لمن أسلم من المشركين(٤) .

---

(١) ينظر أسباب النزول للواحدى ٢٣٧ ، ٢٣٨

(٢) ينظر الكشاف ٤/٩١

(٣) ينظر نظم الدر ١٩/٥٠٥ ، ٥٠٦

(٤) ينظر الكشاف ٤/٩١

وأرجح : أن التعبير بلفظ (عسى) يشمل الأمرين السابقين الوعد والإطماع .

الوعد لأنه ختم بإسناده إلى اسم الجلالة ، وتذييل الآية به وبصفة القدرة ، وعطف المغفرة والرحمة عليها « والله قدير والله غفور رحيم » .

— وهذا التذييل على تلك الصورة فريد فى القرآن الكريم كله فلم يرد فى غير هذا الموطن .

مما يدل على أنها حالة خاصة لأن الحق سبحانه وتعالى نهى عن موالاة الأعداء كبيرا كما هنا وكما فى قوله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين » (المائدة ٥١)

ولكن لما كان لهم أبناء وآباء وأقارب ، وقلوبهم وجلة ونفوسهم قلقلة ، ومشتاقة إلى إحياء المودة والتراحم أراد الحق سبحانه أن يطيب قلوب عباده بإحياء صلة الرحم بينهم ، وقد من عليهم بالإسلام عام الفتح حتى صاروا إخوانا ...

وربما ظنوا استحالة المودة بينهم وبين أقربائهم طاعة لله بعد أن نهاهم عن موالاة المشركين وبين لهم الأنفع والأصلح لهم :

« لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم والله بما تعملون بصير » (الممتحنة ٣)

فقال سبحانه (والله قدير على إعادة أسباب المودة .

والقدير : هو الفاعل لما يشاء على قدرة ما تقتضى الحكمة لا زائداً عليه ، ولا ناقصا عنه(١) .

أى أن حكمة الله تعالى هى التى نهت عن المودة وهى التى أطمعت فيها لتقوى المودة بعد العداوة ، لأن (العداوة قد تكون سببا فى المودة(٢)) .

- وعطف عليها (والله غفور رحيم) ليبعثهم على تجديد الإيمان، وأنه غفور لمن أسلم ، ورحيم بميل قلوبكم ووجد نفوسكم . . . هذا عن الوعد فى (عسى) .

أما الإطماع : فلتثبيت الإيمان فى النفوس ؛ لأنه لا يطمع فى الله إلا واثق بقدرته موقن بعفوه ، والإطماع هنا يشتمل على رجاء وإشفاق ، رجاء ينشؤ عن معرفتهم بكرم الله ، وإشفاق يدل على رغبتهم فيه ، ومدى عنايتهم به ، وحرصهم على تلبية رغبة جامحة فى صدورهم لا يعلمها إلا الله .

ومن ثم توافقت القوة الكامنة فى السياق بين بداية الآية ونهايتها ، لأن وعد الله لا يكون إلا عن حكمة تتجلى لربط أواصر البشرية .

وذاك سر التعبير بـ (عسى) دون الجزم بالأمر والقطع به ودون غيرها من أدوات الترجى .

---

(١) المفردات (قدر)

(٢) النظم الفنى فى القرآن ٢١٢ الأستاذ / عبد المتعال الصعيدى .

المقام الثانى

مقام التحذير من موالاة الأعداء طلباً للنصرة وخوفاً من الدوائر :

= وفى آية الممتحنة السالفة الذكر نهى الحق سبحانه وتعالى عباده المؤمنين عن موالاة المشركين على حساب الدين ، وكان لهم فيهم أقارب ، ثم رحمهم بعد ذلك بسبب الفتح ، لأن غرضهم كان شريفا ، فقد كانوا محزونين ومهمومين لعدم إيمانهم مما جعل الصلة بينهم منصرمة ، فمن الله عليهم وأطمعهم فى عفوه ، وقدرته ، وبين لهم حكمته فى ذلك بقوله «والله قدير» لا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة فالنهى هنا لم يستمر بسبب دخولهم فى دين الله ...

أما النهى فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدى القوم الظالمين فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين »

(المائدة ٥١ ، ٥٢)

- النهى هنا لم ينقطع لأنه نهى عن التناصر والتحالف مع الأعداء مخافة الدائرة فكان سبب المودة فيه غير مرضى ، فهم إنما طمعوا فيهم ولاذوا بهم لدرجة الاندماج وشدة الاختلاط وسرعة الدخول التى صورها قوله

سبحانه (يسارعون فيهم) (حتى يكونوا من شـــدة ملابستهم كأنهم مظروفون لهم)(١).

فعلوا ذلك لما رأوا من قوة شوكتهم، زاعمين أنها قوة دائمة، متغافلين عن معية الله للمؤمنين، وحسب المؤمنين ذلك.

فكانت علتهم علة نفسية (نخشى أن تصيبنا دائرة) متناسين وعد الله لعباده بالنصر والظفر، وفعلا تحقق وعـــد الله، وألمت بهؤلاء الندامة، وانكشف نفاقهم، الذى نشأ عن ضعف إيمانهم فحملهم على ولاية غير الله ورسوله والذين آمنوا ...

= وجاء التعبير بـ (عسى) ردا على ما يدور فى نفوسهم من أمور راهنة، فقد (شكوا فى أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالوا مانظن أن يتم له أمر، وبالحرى أن تكون الدولة والغلبة لهؤلاء)(٢).

لما كان هذا الذى يخالج ضمائرهم جاء التعبير بـ (عسى) ليقابل إطماعهم الواهن المنتهى بإطماع خير منه، ويقابل رجاءهم الغلبة تحقيقا لزعمهم برجاء دوام النصر للدين ودوام الندامه لأعدائه ...

لذلك ختم الموقف بقوله سبحانه « فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين ».

وقوله (نادمين) يدل على ثبات ندمهم ودوامه، وظهور دين الحق على كل دين ...

ويحقق كل ذلك بيان هذا النصر المصحوب بالقوة والغلبة (فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده).

(١) نظم الدرر ٦/١٨٨ (٢) الكشاف ١/٦٢٠

أى الحرى والقريب المحقق : إتيان الحق بالفتح لرسوله صلى الله عليه وسلم على أعدائه، ونصر المسلمين، وفى هذا حركة من المسلمين مدعومة بنصر الله، و(عسى) تدور على الحركة - كما سبق - والإطماع فيـــه حركة.

- « أو أمر من عنده » (ألا يكون للناس فيه فعل كبنى النضير الذين طرح الله فى قلوبهم الرعب فأعطوا بأيديهم من غير أن يوجف عليهم بخيل ولا ركاب)(١).

أى أن نصر الله للمسلمين واقع لامحالة بحركة منهم تكون سببا فيـــه أو بغير حركة.

وفى هذا قمة التنديد بفعل هؤلاء وقمة الرفعة لهؤلاء.

لأنهم لما قالوا (نخشى أن تصيبنا دائرة) كانت علتهم داحضة عند ربهم فأحاطت بهم الدائرة، وهى ما أحاط بالشىء من هزيمة وسوء، ولم تأت فى القرآن لغير ذلك كما هنا وكما فى قوله تعالى :

« ومن الأعراب من يتخذ ما ينفق مغرما ويتربص بكم الدوائر عليهم دائرة السوء والله سميع عليم » (التوبة ٩٨)

وقوله تعالى :

« ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات الظانين بالله ظن السوء عليهم دائرة السوء ... » (الفتح ٦)

(١) الكشاف ١/٦٢٠

فلما فعلوا ذلك وخافوا الهلاك الأكبر لو تخلوا عن موالاة اليهود بما لهم من نفوذ وقوة ظاهرية فى المدينة دحض الحق سبحانه زعمهم ، وقابله بالنصر الأكبر ، معبراً بـ (عسى) مسندة إلى اسم الجلالة ، مما يدل على حتمية هذا الوعد إن شاء الله دون القطع به ، لتظل القلوب بالله عالقة وله راجية ، وفى نصره طامعة ...

* * *

المقام الثالث

مقام الاعتذار والتذلل

ذاك هو مفتاح قبول التوبة ، وتجسيدها حتى كأنها هى الرجاء الذى يرجوه التائبون من ربهم والإشفاق الذى به يرغبون فى قبوله ويخشون ألا يكون ...

يتجلى ذلك فى قبول الحق سبحانه وتعالى توبة طائفة من المنافقين جاءوا وسطاً بين طائفتين ، طائفة من الأعراب (منافقون) ، وطائفة من أهل المدينة (مردوا على النفاق) ومرنوا عليه بحيث لا يعلمهم إلا الله ، وتلك الطائفة التى اعتذرت إلى الله سبحانه ، ورجت توبته لم تستمر على نفاقها فضلا عن أن تمرد عليه ، بل هى كما وصفها الخلق سبحانه وتعالى فى قوله :

« وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم » (التوبة ١٠٢)

وسورة التوبة فى طابعها العام الحزم والصرامة فى تحديد علاقة المسلمين بأعدائهم وهى تتحدث عن ثلاثة طوائف :

١ ـ مشركوا العرب .

٢ ـ من حارب المسلمين من اليهود والنصارى .

٣ ـ المنافقون وقد فضحوا فيها وكشفت أسرارهم وأمر المسلمون بمقاطعتهم والبعد عنهم(١) .

وهذه الآية ـ موطن شاهدنا ـ نزلت فى قوم كانوا قد تخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فى غزوة تبوك ، ثم ندموا على ذلك ... وأوثقوا أنفسهم بسوارى المسجد ، وعاهدوا الله ألا يطلقوا أنفسهم حتى يكون رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الذى يطلقهم ، وآل رسول الله صلى الله عليه وسلم ألا يطلقهم حتى يؤمر بذلك فنزلت(٢) : « وآخرون اعترفوا ... »

ونزل الحق ـ سبحانه وتعالى ـ توبتهم منزلة الطمع والإشفاق لأنهم (اعترفوا) ، وفى التعبير بهذا الفعل تصوير لخلجات نفوسهم فلم يقل : (أقروا) ؛ لأنهم كانوا فى مرحلة الإذعان والتهيؤ للتوبة ، والذنب يكون فيه اعتراف كما فى قوله تعالى : « قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل ... » (غافر ١١)

والاعتراف يؤدى معنى أنهم أدركوا عاقبة الذنوب بتأمل وتفكر ، فكان اعترافهم هذا إيذانا بالتوبة ، فخلطوا عملا صالحاً هو (الاعتراف بالذنب والندامة عليه والتوبة منه) وآخر سيئاً هو (التخلف عن الغزو)(٣) فاختلط عندهم الصالح بالسيء وتاقت نفوسهم إلى الحق فوضعوها موضع

(١) ينظر النظم الفنى فى القرآن ١٢٧ الاستاذ عبد المتعال الصعيدى .
(٢) ينظر أسباب النزول للواحدى ١٤٧
(٣) ينظر تفسير الرازى ١٦/١٧٩

الذلة ، فغيرها الحق سبحانه إلى موضع الرجاء ليكون على خوف وحذر فى سائر أفعالهم وأقوالهم .

ومن ثم يأتى التعبير بكلمة (عسى) مسندة إلى اسم الجلالة لبيان الوجوب على سبيل التفضل .

قال البقاعى « ... فإن (عسى) منه سبحانه وتعالى واجبة ؛ لأن هذا دأب الملوك ، ولعل التعبير بها يفيد مع الإيذان بأنه لا يجب عليه لأحد شيء وأن كل إحسان يفعله فإنما هو على سبيل الفضل إشارة إلى أنهم صاروا كغيرهم من خُلّص المؤمنين غير المعصومين فى مواقعة التقصير وتوقع الرحمة من الله بالرجوع بهم إلى المراقبة ...)(١) .

أى أن دلالة الوجوب الكامنة فى (عسى) واللازمة لمضمون سياقها ليست على سبيل الإلزام وإنما هى تفضل ، وتوفية بما وعد من إطماع تجلت هنا دلالته .

وقد تأكدت هذه الحقيقة ببيان علتها (إن الله غفور رحيم) فلولا ذلك ما كان هذا الإطماع والتفضل ...

وأفضل ما قيل فى هذا الرجاء إنه (... رجاء من يملك الرجاء ، ومن ثم فالتوبة مرجوة القبول ، والمغفرة مرتقبة من الغفور الرحيم)(٢) .

(١) نظم الدرر ٩/١٠
(٢) ينظر فى ظلال القرآن ٣/١٧٠٧

ويندرج تحت هذا المقام :

ـ قوله ضارباً المثـــل للمتبطرين بقصة أصحاب الجنة ، هؤلاء القوم الذين دبروا فأحكموا ، وتخافتوا على ما اتفقوا وكانت لهم العزة والمنعة وظلوا كذلك حتى آل تخافتهم إلى التلاوم ، وآلت قدرتهم إلى الويل والندم .

قال تعالى : « ... إنا بلوناهم كما بلونا أصحاب الجنة ... » الآيات إلى قوله تعالى « فأقبل بعضهم على بعض يتلاومون قالوا ياويلنا إنا كنا طاغين عسى ربنا أن يبدلنا خـــيراً منها إنا إلى ربنا راغبون » (القلم ١٧ : ٣٢)

ـ الغرض العام لسورة القلم هو تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم وإنذار الكافرين بالعذاب وابتلاؤهم بالمال واستدراجهم من حيث لايعلمون ...

وهذه القصة التي ورد فيها شاهدنا ماهي إلا مثل لبيان عاقبة من تبطر بنعمة الله ولم يؤد حقها ، لذلك ختمها الحق سبحانه وتعالى بقوله (كذلك العذاب ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون) .

وهكذا سيقت مساق التحذير ، وبعد أن أخذ هؤلاء أنفسهم باللوم والويل الذي هو مقدمة العزم على التوبة طمعوا في رحمة الله أن يقبلهم وأن يبدلهم خيراً منها ، لذلك قدموا لفظ الرب (ربنا) على المطموع فيه ليعلقوا رجاءهم به إقراراً بقدرته ورحمته ، ومن استعظم جرمه قوى رجاؤه طمعاً في فضل ربه ، وعلى قدر القوة في الظلم تكون القوة في الندم والتوبة .

ولم يقفوا عند هذا الحد بل قوى رجاؤهم بقولهم (عسى ربنا ...) ثم تثبتت هذه الرغبة في التوبة والعزم على الإخلاص فيها بقولهم (إنا إلى ربنا راغبون) . قال البقاعي : « ولما كان المقام مقام التوبة والرجوع عن الحوبة عبروا بأداة الانتهاء (إنا) إشارة إلى بعدهم عن الحضرات الربانية تأدباً منهم فقالوا (إلى ربنا) أي المحسن إلينا والمربي لنا بالإيجاد ثم الإبقاء خاصة لا إلى غيره سبحانه (راغبون) أي ثابتة رغبتنا ، ورجاؤنا في الخير والإكرام بعد العفو ...(١) .

ومن ثم نلحظ أن التعبير بـ (عسى) يأتي غالباً في المواقف الشديدة التي تلقن في الحياة دروساً بها ينتهي الأمـــل إلا في الله سبحانه صاحب القوة والفضل .

* * *

(١) نظم الدرر ٢٠/٣١٥

المقام الرابع

مقام التبتل والرغبة إلى الله سبحانه

جاء هذا المقام فى ثلاثة مواطن من مواطن (عسى) فى القرآن الكريم:

الأول : فى جانب من قصة سيدنا يوسف - عليه السلام - وموقف أبيه من إخوته حين لم يجد من أمرهم وتدبيرهم إلا الصبر الجميل وحسن الظن بالله تعالى أن يفرج كربه ...

فبعد أن احتجز سيدنا يوسف أخاه (بنيامين) بسبب السقاية ليتحقق ما أراده الله سبحانه ، ولم يجدوا بُداً من تركه بعد محاولات وصلت إلى يأسهم ، قال كبيرهم كما حكاه كتاب الله عز وجل : « ارجعوا إلى أبيكم فقولوا يا أبانا إن ابنك سرق وما شهدنا إلا بما علمنا وما كنا للغيب حافظين واسأل القرية التى كنا فيها والعير التى أقبلنا فيها وإنا لصادقون قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبرٌ جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً إنه هو العليم الحكيم » (يوسف ٨١ : ٨٣)

لاريب أن هذه السورة التى قامت على قصة سيدنا يوسف تسلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وتثبت قلبه ، وهى تذكره بأنواع المحن والبلايا التى عاناها أخو يوسف - عليه السلام - والوجد الذى ابيضّت بسببه عين أبيه ، وفيها عبر لأولى الألباب وتصديق للذى بين يدى محمد - صلى الله عليه وسلم - كما جاء فى ختامها .

فالمواقف فيها مواقف شدة وابتلاء ، وذلك يستدعى الصبر فى أعلى منازله ، ولن يكون إلا بتبتل ورغبة إلى الله - سبحانه - لذلك قال سيدنا يعقوب لأولاده (بل سولت لكم أنفسكم أمراً) .

ولا يقابل هذا التآمر إلا الصبر الجميل (فصبر جميل) ولن يتأتى الصبر بهذا الوصف إلا بشدة التعلق بالله وحسن الظن به من قلب مكظوم إلا عن الله ، ومن ثم قال: (عسى الله أن يأتينى بهم جميعاً) فكان اللجوء إلى الله .

- وهذا الموقف يناسبه وقع الكلمات التى نسجت عليها الآية ، فكلمة : (سولت) بمعنى زينت وحرصت على تصوير الباطل فى صورة الحق ، قال الراغب : والتسويل : تزيين النفس لما تحرص عليه وتصوير القبيح منه بصورة الحسن(١) .

ولم تستعمل فى القرآن الكريم إلا هكذا مع إسنادها إلى النفس ثلاث مرات منهم مرتين فى شأن إخوة يوسف « قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً ... » (يوسف ٨١ : ٨٣) ، وواحدة فى شأن السامرى « قال بصرت بما لم يبصروا به فقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها وكذلك سولت لى نفسى » (طه ٩٦)

وأسندت إلى الشيطان مرة واحدة « إن الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ماتبين لهم الهدى الشيطان سول لهم وأملى لهم » (محمد ٢٥)

---

(١) المفردات (سول) .

فـ (سول) تصور ما كان يدور فى نفوسهم ، يريدون إقناع أبيهم بغير الحق على ما دأبوا عليه ، لذلك قال : (سولت لكم) أى هذا الفعل لكم خاصة ، وهذا ما تحرصون عليه من قديم الزمان منذ تآمرتم على التخلص من يوسف (وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً ...)

وأسنده (أن التسويل) إلى النفس فى الموقفين لبيان أن هذا التآمر محيط بجملتهم ونابع من دواخلهم مع شدة الحرص على فعلهم هذا ، ولكن الذى دبروه فى المرة الأولى مع يوسف دعا أباهم لتكذيبهم فى الثانية ، ليس لأنهم كذبوا ولكن لعله أن فى دعوى السرقة مكيدة ...

وجاء التعبير بالمصدر (فصبر جميل) ليبين أن تلك نهاية شأنه وأنه لا يملك سوى ذلك وتلك مقدمة التبتل وشدة اللجوء إلى الله ...

تجلت هذه الحقيقة من نفس لا تجد لها ناصراً إلا الله ، فانطلقت بهذا التعبير الذى يكشف مدى تعلقها به، وترجيها له (عسى الله) صاحب العظمة والهيمنة ، (إنه هو العليم) بخفايا الأمور والأسباب الموصلة إلى المقاصد (الحكيم) أى البليغ فى إحكام الأمور ، بحيث لا يقدر أحد على نقض ما أبرمه منها ، وترتيب الوصفين على غاية الإحكام ، لأن الحال داع إلى العلم بما غاب من الأسباب أكثر من دعائه بمعرفة حكمتها(١) ...

ـ لما كانت هذه حاله من الطمع فى قدرة الله قدم لها بهذا الذى وعد به (فصبر جميل) أى كثير مبالغ فيه لا جزع منه ولا شكوى إلا الله ، حقق ذلك بقوله بعد (إنما أشكو بثى وحزنى إلى الله) .

كان هذا الصبر على قدر الكيد الذى كادوا به والتآمر الذى دبروه ،

(١) ينظر نظم الدرر ١٠/١٩٥

ولم يوصف الصبر بذلك (جميل) فى القرآن الكريم إلا فى ثلاثة مواطن ، اثنين فى شأن سيدنا يعقوب ، فى هذا الشاهد الذى معنا فى الآية الثامنة عشرة من السورة فى موقفه من إخوة يوسف مع يوسف « وجاءوا على قميصه بدم كذب قال بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » .

والثالث فى شأن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم والحق سبحانه وتعالى يسليه بقوله : « فاصبر صبراً جميلا » (المعارج ٥)

ـ نخلص من هذا إلى تناسق عناصر السياق وتآزرها مع (عسى) فى إبراز دلالتها ؛ لأن دلالة الكلمة تنجم من البناء يشد بعضه بعضا ...

وهنا سؤال يثار هو :

لماذا قال سيدنا يعقوب فى موقفهم مع يوسف « بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون » وقال فى موقفهم مع أخيه « بل سولت لكم أنفسكم أمراً فصبر جميل عسى الله أن يأتينى بهم جميعا » .

طلب هناك العون من الله أن يكشف له أمرهم وكيدهم (والله المستعان .)

وهنا رجاه ـ سبحانه ـ أن يأتيه بهم جميعاً ، فقد شكوه هناك فى صدق نيتهم ، بأن أكله الذئب حين قالوا : « وما أنت بمؤمن لنا ولو كنا صادقين » فقال : « والله المستعان ... » وهنا قالوا « وإنا لصادقون » حققوا صدقهم فيما حدث ، (ولكن حسن ظنه بالله تعالى أوحى إليه أنه سيجعل له بعد المحنة منحة وبعد الضيق مخرجاً ، أو لعل الله أخبره بحياة يوسف ، أو لعله ظهرت له علامات ذلك) ، فاشتد أمله وقوى رجاؤه فقال : (عسى الله أن يأتينى بهم جميعا ...)

- فشكه فى صـــدق نيتهم هناك جعله يستعين بالله على إبراز الحق ، وتأكيدهم صدقهم ههنا جعله يطمع فى الله ثقة فى علمه وحكمه ، ومن هنا يتجلى الفرق بين الموقفين .

الشاهد الثانى من شواهد هذا المقام :

جاء فى سياق الفرق بين نموذجين من نماذج البشرية ، أحدهما ينقطع إلى الدنيا فيزول ثراؤه ولم يبق إلا الندم ، والآخر يتبتل إلى الله ، ويرجوه ماهو أخير وأنفع ، طمعاً فى قدرته ، وذلك فى قصة صاحب الجنتين وإرشاد صاحبه له .

قال تعالى : « ولولا إذ دخلت جنتك قلت ماشاء الله لا قوة إلا بالله إن ترن أنا أقل منك مالا وولداً فعسى ربى أن يؤتين خيراً من جنتك ويرسل عليها حسباناً من السماء فتصبح صعيداً زلقـا » (الكهف ٣٩ ، ٤٠)

صاحبه يتبطر ويغتر بما لديه ، وينظر إلى جنته فى غرور ويقول (ماأظن أن تبيد هذه أبداً ...) بل يتجاوز ذلك إلى إنكار الساعة (وما أظن الساعة قائمة ...) إلخ .

وذاك يرشده ويأخذ على يده (ثم يردف ذلك بترجيه من الله وتوقعه أن يقلب مابه وما بصاحبه من الفقر والغنى ...)(١)

فلم يكتف بأن يكون دعاءه مجرداً من مشاعر التبتل ، والتذلل ، والرغبة

(١) ينظر البحر المحيط ١٢٩/٦

فى عطاء الله سبحانه ، بل ألبسه لباس التقوى ، بعـــد (الإقرار بالعجز والافتقار فى نظير ما أبدى الكافر من القوة والافتخار ، فقال بصورة التوقع « فعسى ربى » .

أى أنه عبر بـ (عسى) لتوقعه حدوث المطموع فيه ، وهو أن يغنيه الله ويفقر صاحبه بجعل جنته تلك مناط العزة والافتخار - أرضاً ملساء ...

فأفادت (عسى) أن رجاءه مصحوب بالتوقع وقوة الأمل ...

= وقوله (فعسى ربى ..) يشعر من يدقق النظر فى كلمته ، ويتصور هيأته مع فقره وافتقاره إلى ربه بأنه أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبره ...

- أتخيله هكذا بين الثروة الذاهلة والعزة الباهرة التى يعيش فيها صاحبه وهو على النقيض منه من هذا الجانب المادى ، وكذلك من الجانب المعنوى كفر وافتخار ، يقابله إيمان وانكسار نتصوره من قـــوله (لكنا هو الله ربى) ...

(لكنا) بهيأتا هذه تصور ثقل الإيمان فى نفسه وقوة يقينه بربه ، لذا كان حواره فى صورة الراجى الطامع فى ربه .

= ومن ثم حدث ماتوقعه المؤمن (وأحيط بثمره ...) الآية ، وهذا التعبير ، (وأحيط بثمره) يضاهى ما طلبه فى رجائه (... فتصبح صعيداً زلقا ...) .

وهكذا تصور (عسى) بسياقها حالة الرجل المؤمن ، وتبين أنها لاتكون فى هذا الموضع إلا مع من كانت له عند الله يد بالانقطاع إليه والاعتزاز بشرعه ...

أما الشاهد الثالث فى هذا المقام:

فجاء فى موقف سيدنا موسى - عليه السلام - عند خروجه من المدينة خائفاً يترقب يطلب النجاة من الله، وقد تآمر الملأ عليه ...

- جاءت (عسى) فيه تصور الحركة المصحوبة بالتبتل واللجوء إلى الله وحده فما إن طلب من الله النجاة حتى هداه إلى طريقها ...

قال تعالى:

« وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إنى لك من الناصحين فخرج منها خائفا يترقب قال رب نجنى من القوم الظالمين ولما توجه تلقاء مدين قال عسى ربى أن يهدينى سواء السبيل » . (القصص ٢٠ : ٢٢)

توجه إلى الله بهذا الدعاء (رب نجنى ...) بعد أن أصابه ما أصابه من نبأ تآمر الملأ عليه، فبقدر خوفه وترقبه وتلفته يكون تلهفه للنجاة من الله سبحانه، لذا قيل (رب نجنى من القوم الظالمين).

وطبيعة البشرية تجعل الإنسان يقوى استسلامه لله وانقطاعه إليه فى حالة الخوف الشديد، ومن ثم ازداد طمعه ورجاؤه حين هدى إلى طريق الهدى من حيث لا يعلم، فقال: (عسى ربى أن يهدينى) بتقديم كلمة (ربى) ووقوعها عقب أداة الترجى تبياناً لقوة أمله فى الله سبحانه، ولأن القصد إلى الله وحده.

قال البقاعى: «... (عسى) أى خليق وجدير وحقيق، ولما كانت عنايته بالله أتم لما له من عظيم المراقبة قال مقدماً له (ربى) أى المحسن إلىّ

بعظيم التربية فى الأمور المهلكة (أن يهدينى سواء) أى عدل ووسط (السبيل) وهو الطريق الذى يطلعه عليها من غير اعوجاج»[١].

فلما وقع الطمع فى نفسه وتثبت ولم يغفل عن قدرة الحق سبحانه تجاه ما أصابه تحقق المطموع فيه بعد ذلك (أن يهدينى سواء السبيل).

ونلحظ العلاقة بين أداة الرجاء (عسى) وبين قوله (ربى) الذى يفيد الرحمة والشفقة، والتعبير بفعل الهداية (أن يهدينى) فنجد تآزرها جميعا فى بيان شدة التعلق بالله الذى لانجاة من هذا الهول المحيط به إلا منه، فعبر بـ (عسى) تحقيقا للنجاة التى طلبها من قبل، وبلفظ (ربى) بيانا للطف الذى يهدىء من روعه، ويثبّت نفسه، وبلفظ (يهدينى) بيانا لطول الطريق الذى لايحتاج إلى مجرد دلالة عليه، بل دلالة مصحوبة بحرص وحماية، لأنه مطارد من الملأ، وخرج وكله رعب وخوف، وتضرع وكله أمل ورجاء.

لذلك لم يقل يدلنى بل قال (يهدينى) ليتوائم مع تبتله لله سبحانه وقوة رجائه له.

- وقد تحقق هذا الرجاء حين استقر به المقام فى بيت حَيِّه، وقد أمن من فرعون وكيده ولحكمة مقدرة فى علم الله كان هذا الذى كان[٢] ...

---

(١) نظم الدرر ١٤/٢٦٣

(٢) ينظر فى ظلال القرآن ٥/٢٦٨٩

المقام الخامس

مقام الترغيب والترهيب

يتجلى هذا من شواهد (عسى) فى خطاب الحق سبحانه وتعالى لبنى إسرائيل بعد أن قضى إليهم بالإفساد فى الأرض مرتين .

وبعد أن حدث ذلك وعاقبهم عليه أراد أن يبين لهم رحمته بمن أطاعه وعقابه لمن عصاه ، فكان الترغيب بطريق الإطماع ، والترهيب بطريق التحذير ، وجاءت (عسى) تبين أن هذا الإطماع قريب الوقوع لمن أحسن وجهه لله .

تدبر هذا كله فى سياق خطاب الحق سبحانه وتعالى فى قوله :

« ... إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا » (الإسراء ٧ ، ٨)

نلحظ أن التطميع فى رحمة الله ، والحث على الإحسان والترهيب من الكفران جاء على لسان التدريج ، فبدأ ببيان أن الإحسان للنفس وأن الإساءة عليها ، والمقصود بالإحسان هنا الطاعة والامتثال ، وبالإساءة والعصيان والإفساد .

وعبر بـ (إن) فى (إن أحسنتم) مواءمة لحالة القوم وهم يترددون بين الإساءة ، والإحسان حين المذلة والإساءة حين التمكين ، فقد أذاقهم الله القهر والغلبة مرة جزاء إفسادهم ، ومكن لهم مرة بالإمداد بالمال والبنين بسبب طغيان عدوهم : ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيرا ... » .

ثم تحقق وعد الله بعد ذلك بإساءة وجوههم وتدميرهم ، مبيناً لهم أن هذا قد يكون مفتاحا للرحمة إن تبتم وأنزجرتم ، فقال : (عسى ربكم أن يرحمكم) .

= قال أبو حيان : « وهذه الترجئة ليست لرجوع دولة وإنما هى من باب ترحم المطيع منهم ، وكان من الطاعة أن يتبعوا (عيسى ومحمداً ـ عليهما السلام ـ فلم يفعلوا ، وإن عدتم إلى المعصية مرة ثالثة عدنا إلى العقوبة وقد عاد فأعاد الله عليهم النقمة بتسليط الأكاسرة وضرب الإتاوة عليهم .

وعن الحسن : « عادوا فبعث الله محمداً صلى الله عليه وسلم فهم يعطون الجزية عن يد وهم صاغرون(١) » .

وكما أن الترغيب فى رحمة الله يتجلى بما يكاد يصل إلى التحقيق لمن أطاعه ، كذلك يتجلى الترهيب فى أعلى منازله (وإن عدتم عدنا) أى إن عدتم إلى الإفساد عدنا إلى العقاب (وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا) .

وهكذا يختم السياق الآية بمصير الكافرين فى الآخرة لما بينه وبين مصير المفسدين من مشاكلة(٢) ...) .

---

(١) البحر المحيط ٦/١١

(٢) فى ظلال القرآن ٤/٢٢١٤

ويعبر بقوله (حصيرا) أى محيساً لتتوامم شدة التضييق عليهم مع شدة الإطماع فى الرحمة لمن أطاع وامتثل .

وتتوالى الآيات بعد ذلك على هذا المنوال ، ترغب تارة ، وترهب أخرى لتأخذ بيد البشرية جمعاء إلى خيرى الدنيا والآخرة ، وذلك ليتحقق التناسب الكامل بين مقدمة السورة والنسيج الذى نسجت عليه السورة .

= لذلك كان الترغيب فيها بأعمق معانيه ، والترهيب كذلك ، ومن ثم جاء التعبير فى السورة بـ (عسى) ثلاث مرات ، وهذه واحدة منها، والثانية ستأتى فى مقام الإنكار على المشركين (.. فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا).

والثالثة فى مقام الرفعة لرسول الله صلى الله عليه وسلم والإرشاد لأمته « عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا » .

ولم يأت فيها التعبير بـ (لعل) على الإطلاق لبيان تحقيق وعد الله فى الدنيا والآخرة ، وأن الأطماع ههنا فيما يقع لا فيما يحتمل .

المقام السادس

مقام الرفعة الخاصة والإرشاد العام

هذه الرفعة لرسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ خاصة ، وسبقت بتكليف زائد ، لأنها نظير منزلة فى الآخرة ان تكون إلاله ، وهذه الإشارة توجيه لأمته بسؤال الله الوسيلة والفضيلة والدرجة الرفيعة . . لأن الخير الذى يحل برسول الله صلى الله عليه وسلم إنما هو لأمته خاصة ...

فإن ذلك فى قوله تعالى يخاطب رسوله صلى الله عليه وسلم :

« أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاما محمودا » (الإسراء ٧٨ ، ٧٩)

ـ العنصر البارز فى سورة الإسراء كلها هو شخص رسول الله صلى الله عليه وسلم بدأت ببيان منزلته عند الله تسلية له ، وهذا فضل الله الذى لا حرج عليه ، ثم ربطت ذلك بما قضاه على بنى إسرائيل ، لأن الإسراء كان إلى المسجد الأقصى ، ثم رغبت فى عبادة الله ورهبت من عصيانه ..

واستمرت على هذا إلى أن أثبتت تكريم الله لبنى آدم ، وجاءت هذه الآية (شاهدنا) تبين أن لرسول الله صلى الله عليه وسلم تكريما خاصا

ليس لسائر بنى آدم مثله ، فهو يندرج مع بنى آدم فى التكريم العام (ولقد كرمنا بنى آدم ...) بالإضافة إلى هذه الخصوصية .

- ولكن الله - سبحانه وتعالى - قبل أن يعطى يكلف ، فلما قال له (ومن الليل فتهجد به نافلة لك) ، أى فريضة عليك خاصة دون غيرك لأنه تطوع لهم(١) ، خُصَّ به ترغيبا للأمة ، لأنهم يعلمون أنه لا يُخَصُّ إلا بخير الخير ...

ولما أمره سبحانه بالتهجد والتذلل وكان السياق للعظمة رجاه فى النوال بما يليق بالسياق ، قال تعالى (عسى أن) أى لتكون بمنزلة الراجى لأن (يبعثك) ولما كان السياق قد انصرف للترجية عبر بصفة الإحسان (ربك(٢)) .

(أى أن التعبير جاء بلفظ الترجى ولم يأت على القطع مع أن وعد الله محقق ، ليكون هو بمنزلة الراجى تعليما لأمته كيف يتعلقون بربهم ، ويرجونه طمعاً من فضله وإحسانه ، لأن رسولهم قدوة ، فنزّل القدوة منزلة الراجى فى الأمر المحقق ترغيبا للأمة فى ذلك .

وعبر بلفظ (الرب) بيانا لأن هذا من فضل الله وإحسانه ، وتحقيقا للتسلية والمواساة ، التى من أجلها كانت الإسراء والمعراج .

ولذلك أيضا جاء فى سياق هذه الخصوصيات والتوجيهات « ... إلا رحمة من ربك إن فضله كان عليك كبيراً » ، وهذا إذعان ببيان فضل الله ...

---

(١) الكشاف ٤٦٢/٢

(٢) ينظر نظم الدرر ٤٩٤/١١

- فى هذا الترجى والإطماع خصوص لرسول الله صلى الله عليه وسلم وعموم ، وتنبيه معنوى لأمته ؛ لأن هذا المقام المحمود (المطموع فيه) نفعه لهم .

= وذكر الفخر الرازى أن المقام المحمود هو مقام الشفاعة ، وأن اللفظ مشعر به ، فقوله (عسى ..) تطميع ، وتطميع الإنسان فى الشىء الذى وعْدُه فى الحال محال فوجب أن يكون ذلك الإنعام الذى لأجله يصير محموداً سيصل منه بعد ذلك إلى النـــاس ، وما ذاك إلا شفاعته عند الله ...

وتنكير (مقاما) يدل على أنه يحصل للنبى صلى الله عليه وسلم فيه حمد بالغ عظيم كامل ...

وإذا ثبت هذا فوجب أن يكون هو الشفاعة ، ويؤكده الدعاء المشهور...

وابعثه المقام المحمود الذى وعدته يغبطه الأولون والآخرون (١) ...

= ويلاحظ أنه لما كان النص على هذه الخصوصية وأنها هى المقصودة بهذا المقام أوقع أداة الترجى (عسى) على فعل البعث فقال (عسى أن يبعثك ربك) ، ولا يستقيم هنا : عسى ربك أن يبعثك لأن القصد يتجه كلية إلى بيان البعث هذه ، ثم بيان رحمة الله التى أعطت هذه الخصوصية فى المنزلة نظير الخصوصية فى التكليف .

وهذا بخلاف مامضى فى قوله (عسى ربكم أن يرحمكم) لأنه هناك أراد أن يلفتهم إلى رحمة الله وقد تغافلوا عنها ، فبدأ ببيانها .

---

(١) ينظر تفسيره ٣٢/٢١

وكذلك (عسى ربكم أن يهلك عدوكم ...) فيه توجيه إلى الله أيضا ، وأنه بفضله ورحمته قادر على كل شيء ، وقد تذللوا بقولهم (أوذينا من قبل أن تأتينا ومن بعدما جئتنا قال عسى ربكم أن يهلك عدوكم ...)

وكذلك : (عسى ربي أن يؤتين خيرا ..) فكأنه يتباهى بفضل ربه نظير مباهاة الآخر بدنياه ... وسبق بيان ذلك .

أما هنا فالاتجاه أولا إلى إثبات البعث من الله على هذا المقام المحمود .

* * *

المقام السابع

مقام التخويف والنصح

هذا التخويف مقصده الحث على الطاعة والامتثال ، والتحذير من التظاهر ، أى التعاون على رسول الله صلى الله عليه وسلم - بما يسوءه وفيه إرشاد ونصح لنساء النبى صلى الله عليه وسلم بالانقياد لأمره ، والحرص على مايسره لا مايغضبه .

ترى ذلك فى قوله تعالى :

« ... عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكارا »

(التحريم ٥)

سورة التحريم من السور الخاصة بشأن نساء النبى صلى الله عليه وسلم ، مع مافيها من توجيهات للمؤمنين .

فإذا كانت السورة استهلت بإرشاد النبي صلى الله عليه وسلم وتنبيه على ماحدث وأنه لا ينبغى أن يكون ، وعاتبت نساءه على ما حدث منهن ، وحثت على التوبة ، فإن هذه الآية فيها ملاطفة ومودة ومقاربة للنبى صلى الله عليه وسلم بربه الذى أحسن إليه وأنعم عليه بما لا يحصى ، لذلك قال : « عسى ربه » وفى هذا مافيه من تكريم وتشريف وموالاة .

وبقدر ما فى (عسى) هنا من المحاباة والمواساة على ماحدث من عتاب فإن فيها اهتماما بشأنه ، وتخويفا لنسائه بدليل أنه ـ سبحانه ـ وسّط بينها وبين خبرها قوله (إن طلقكن) أى بنفسه من غير اعتراض عليه(١) .

أى إن وقع هذا الشرط فالله قادر على إبداله خيراً منكن .. وفى هذا الإعلام تخويف لهن ...

وعبر بـ (إن) لأنه سبحانه وتعالى يعلم مدى استجابة نساء النبى صلى الله عليه وسلم لتوجيهات الحق وانقيادهن لأمر رسوله بعد .

ومن ثم قيل (عسى) هنا للتخويف لا الوجوب(٢) ، ولكنه تخويف محقق ، وبالغ فى التهديد ، بدليل هذه الآية وضرب المثل بأمرأة نوح وامرأة لوط فى نهاية السورة ، كما أنه مصحوب بنصح وإرشاد بدليل إبداء صفات النساء اللاتى يمكن أن يبدله بهن لو حدث التطليق (مسلمات مؤمنات قانتات تائبات عابدات سائحات ثيبات وأبكاراً) ، وهى الصفات التى يدعوهن إليها عن طريق الإيحاء والتلميح(٣) .

ومن هنا كان الحض على التوبة بعد ميل القلوب « إن تتوبا إلى الله » أى فهو الأفضل لأنه (فقد صغت قلوبكما) أى مالت عن الحق ، وهذه دعوة خاصة جاء بعدها الإرشاد العام ولـ (عسى) فيه دلالة أيضا :

قال تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحا عسى ربكم أن

(١) ينظر نظم الدرر ١٩٢/٢٠
(٢) ينظر الفتوحات الالهية ٣٦٧/٤
(٣) ينظر فى ظلال القرآن ٣٦١٦/٦

يكفر عنكم سيآتكم ويدخلكم جنات تجرى من تحتها الأنهار يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه نورهم يسعى بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا واغفر لنا إنك على كل شىء قدير » (التحريم ٨)

فهناك حض على التوبة ، وهنا أمر بالإخلاص فيها (نصوحا) أى خالصة من الشوائب ، وتلك هى المنزلة التى تستحق هذه الإطماع الماثل فى دلالة (عسى) بين سياقها .

والتعبير بلفظ (رب) بعد (عسى) على الإضافة (عسى ربكم) يشعر برحمة الله وتفضله .

وفى ذكر تكفير السيئات وإدخال الجنات بعد (عسى) إرشاد للعبد أن يعيش بين خوف ورجاء ، خوف من العقاب ، ورجاء فى الثواب .

ويمتد هذا الإطماع إلى أرقى المنازل فى قوله سبحانه (يوم لا يخزى الله النبى والذين آمنوا معه ..)

ويمتد معنى الإطماع فى دلالة (عسى) إلى هذا الإغراء بمعية النبى صلى الله عليه وسلم للمؤمنين يوم الخزى ، وإبراز الكرامة لهم بذلك ...

ـ وهذا الإرشاد العام فى الشاهد الثانى من شواهد (عسى) فى سورة التحريم ، امتداد للتوجيه الخاص فى الشاهد الأول .

وفى الموقفين تخويف من الله وإطماع فى فضله وإحسانه ... وبهذا ندرك دلالة (عسى) بين السياق الكلى ، وأهميتها دون غيرها من أدوات

الترجى فى السياق الجزئى ، لأنها تجمع بدلالتها هـــذه بين رجاء الله والخوف منه .

* * *

وتلك هى مقامات (عسى) فيما ورد حديثا عن الله سبحانه رأينا فيها : التسلية والتحذير ، والاعتـــذار والتذلل والتبتل والرغبة إلى الله ، والترغيب والترهيب ، والرفعة والإرشاد والحث على الطاعة ...

وإذا أنعمنا النظر فى هذه المقامات رأيناها تجمع بين دفتيها ما دلت عليه (عسى) من الرجاء والطمع فى الاستقبال ، لأن نتيجة كل غرض من الأغراض السابقة لا تتجلى إلا بعـــد وقوعه ، فنتيجة التحذير والتبتل والترهيب ... إلخ لا تكون إلا بعد حدوث الفعل ...

= وإن كان الرجاء من الله محققا فإنه ـ سبحانه ـ يحث عباده عليه تعليما لهم وجوب الترجيح بين الخوف والرجاء ، ومن هنا كان التعبير بـ (عسى) فى المقامات السابقة .

ثانيا : مقامات (عسى) فيما ورد فى الحديث عن الخلق

ما سبق الحديث عنه كان فى شواهد (عسى) التى جرت فى الحديث عن الله ـ جل ذكره ـ بمعنى أن يضاف الفعل (عسى) إلى اسم الجلالة أو الرب ليكون الإنسان منه راجياً كما سبق فى بيان العلماء ...

وقد ورد ذلك فى أربعة عشر شاهداً ، وكذلك الشأن فيما جرى من شواهدها فى الحديث عن البشر ، نحو قوله (فعسى أن تكرهوا شيئا ...)

وقوله « فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين » وقوله : « قل عسى أن يكون ردف لكم » ... وهكذا .. وردت أيضا فى أربعة عشر شاهداً على إفراد (عسى) وشاهدين على جمعها (هل عسيتم) ، (فهل عسيتم) .

= ولها مقاماتها التى تتجلى فيها معانيها نحو مقام التوجيه والردع ، والدعوة إلى النظر والاعتبار ، وطلب الهدى والخير ، ودحض الإنكار ودفعه ، والمحبة والتبنى و عليم الآداب الإسلامية .

وعُبّر بـ (عسى) بين هذه المقامات ، ترويضاً للنفس البشرية وتوجيهها لها إلى ماينفعها أو تأنيساً لها تجاه أمر فرضه الله ، كالقتال ـ مثلا ـ فى سبيله أو حثاً على الترابط والاجتهاد فى عدم التقاطع ، كما سيأتى ، أو تنبيها على اقتراب الأجل والغفلة تحيط بهم ، أو توجيها لخشية الله وتقوية لها فى الصدور ، وقطعاً للاتكال على الأعمال مهما عظمت ، أو طمعاً فى النفع

والمحبة مع نسيان المُقَدَّر فى علم الله ، أو طمعاً فى توفيق الله وهدايته وعدم الشقاوة بدعائه ، والتعريض بشقاوة من يعبدون غير الله ، أو إثارة الرعب والخوف فى قلوب الذين ينكرون وعد الله أو يستعجلونه ... أو تخويفاً من السخرية والاستهزاء بالضعفاء والمغلوبين ، فعسى أن يكونوا خيراً من الساخرين ، وفى هذا ما فيه من نبذ صنيع الجاهلية ، والالتزام بالآداب الإسلامية ...

وإليك تفصيل هذه المقامات فى ضوء شواهدها وسياقها ...

١ ـ مقام التوجيه والتوعية الرادعة الدافعة إلى الحق :

وشواهد هذا المقام تأتى فى بيان أهمية الإلتزام بفرائض الله سبحانه ، وأنه هو الذى يعلم الخير ، وأنه قد يكون فيما تعتقدونه شراً .

كما تأتى فى الحث على التوبة والعمل الصالح ، وفى هذا دعوة إلى الامتثال ، وزجر على العصيان ، ودفع إلى طريق الهدى ، وبيان شواهد ذلك كما يلى :

قال تعالى :

« كتب عليكم القتال وهو كره لكم وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لاتعلمون » (البقرة ٢١٦)

وردت (عسى) فى هذه الآية مرتين كلتاهما فى شأن القتال ، وبيان مشقته ومخالفة زعم النفس البشرية فيه .

وهذه أول (عسى) فى القرآن المدنى ، جاءت ترغيب فى الجهاد وتحض عليه وتبين أن الخيرية فيه ، وتردع عما تركن إليه بعض النفوس الحريصة على السلامة ، راتية فى العقود الخير ، وهى لا تدرى .

= واستدل العلماء بهذه الآية على أن (عسى) للترجى فى المحبوب والإشفاق فى المكروه ، وهنا اجتمعا(١) .

---

(١) ينظر البرهان للزركشى ٣٨٨/٤ ، وبصائر ذوى التمييز للفيروز أبادى ٦٦/٤

أى أن (عسى) الأولى فى الآية ترغب فى القتال وتبين أن الخير قد يكون فيما يخشونه ، خوفا من المشقة بأنواعها .. والمشقة غالبا تكون داعية إلى الإحساس بالعمل وبخيرية الأجر وحسن الجزاء ، لذلك جاء التعبير بـ (عسى) لتوجه إلى الرجاء والتضرع فى أن يكون المكتوب خيراً .

فهى حينئذ بعد قوله سبحانه وتعالى (كتب) نزلت الخائف من القتال منزلة الطامع فى خيرية هذا العمل ودفعته إلى التغلب على شهوة التقاعس وكبح جماح النفس .

وخالف أبو حيان هذا المعتاد لدى الناس من أن (عسى) الأولى فى الآية للترجى ، والثانية للإشفاق ، وعكس ذلك فقال فى قوله سبحانه : (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم) « (عسى) هنا للإشفاق لا للترجى ، وهى هنا تامة لا تحتاج إلى خبر .. وقوله (أن تكرهوا) فى موضع رفع بـ (عسى) ، (وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم) عسى هنا للترجى ومجيئها له هو الكثير فى لسان العرب(١) » .

ووافقه على ذلك بعض العلماء منهم :

العجيلى والآلوسى ، قال الأول : (وعسى أن تكرهوا شيئا .. إلخ ليس المعنى على الترجى كنظائرها الواقعة فى كلامه تعالى فإن الكل للتحقيق ، ويصح للترجى باعتبار حال (السامع) وكذلك الشأن عند الآلوسى(٢) .

---

(١) البحر المحيط ٢/١٣٤

(٢) ينظر الفتوحات الإلهية ١/٧١

وهكذا انساق بعض العلماء وراء أبى حيان دون تعليل لما رأوه .

- وأرى : أن الأمن على خلاف ذلك ، فكيف يشفق عليهم من المكتوب ، وهو - سبحانه - لا يكلف نفسا إلا وسعها - وقد تكفل بإعانة المجاهد فى سبيله ، - كما بينت السنة - فالأولى أن يدفع المجاهد إلى ترجى أن يكون الخير فيما يخشاه ، ولاسيما إذا كان مكتوباً ، والله - سبحانه وتعالى - يحثهم على رجاء الخير فيما تأباه نفوسهم .

ولا يستقيم أن يكون معنى الإشفاق بعد معنى (الكتابة) (كتب عليكم) أى فرض ، وما فرضه الله تدفع النفوس إلى رجاء الخير فيه ، لا إلى الإشفاق منه ، والإشفاق فيه معنى الخوف كما سبق .

- وإنما يستقيم هذا المعنى (الإشفاق) فى (عسى) الثانية فى الآية (وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم) .

= هذا هو مناط تخويف النفس بما تحبه راغبة فيه ، والمقدر المستور أنه شر لها ، فليس كل الخير فيما تحبه النفس ، بل قد يكون شرا ، ومن هنا يكون الإشفاق علية ، تجلية دلالة (عسى) يتآزرها مع السياق .

فما ذهب إليه الزركشى والفيروزأبادى من أن (عسى) الأولى للترجى والثانية للإشفاق هو الرأى ؛ لأن الآية تنشىء تشريعا ، وإنشاء التشريع لا يبدأ بالتخويف من اتباع الهوى ، وإيثار التقاعد عما كتبه الله .

= ومعنى الترجى فى الأولى أقرب إلى الترغيب فى الجهاد ، وبيان مافيه من الظفر والغنيمة ، أو الشهادة والجنة ، وفى كل ذلك نفع لهم .

ومعنى الإشفاق بادٍ فى الثانية لما فيها من ترهيب بعد ترغيب (فلما

رغبهم فى الجهاد بما رجاهم فيه من الخير رهبهم من القعود عنه بما يخشى فيه من الشر ... لما فيه من الذل والفقر وحرمان للغنيمة والأجر(١) .

ولما صرح الحق ـ سبحانه وتعالى ـ بأن القتال كره لهم ، وقد كتب عليهم ، بين لهم رحمته بهم ، ودفعهم إلى ترجى الخير فيه وهو كائن ـ بمشيئة الله ـ إلا أنه لا يأتى إلا بالعبادة ، والامتثال والطاعة .

ومن ثم عبر بـ (عسى) الدالة على عدم القطع لتعلق القلوب به ـ سبحانه ـ ويصفو الجهاد لوجهه ، ويكون ابتغاء مرضاته ، وهذا من توجيهات الحق لعباده ، وردعهم عما يخالف أمره ... .

(١) ينظر نظم الدرر ٣/٢٢١

٢ ـ الشاهد الثانى من شواهد هذا المقام :

يتجلى فى قوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا يحل لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيراً كثيراً » (النساء ١٩)

وردت (عسى) فى سورة النساء ثلاث مرات ، سبق الحديث عن اثنين منها فى شأن الجهاد فى سبيل الله ، والثالثة فى شاهدنا هذا فيها حث على الترابط وحرص على إقامة بنيان الأسرة ، ولفت إلى أن الشر ليس فى كل ما يراه الناس شراً ، فقد يجعل الله فيه خيراً كثيراً ...

= والآية من بدايتها تنبه إلى الأصلح ، وتهدى إلى الأعدل ، وتدحض عادات قديمة ، تحط من شأن المرأة .

ذكر الواحدى فى سبب نزولها عن ابن عباس رضى الله عنهما قال « كانوا إذا مات الرجل كان أولياؤه أحق بامرأته إن شاء بعضهم تزوجها وإن شاءوا زوجوها ، وإن شاءوا لم يزوجوها ، وهم أحق بها من أهلها » فنزلت هذه الآية(١) تدفع المضار وتأمر بحسن المعاشرة ، وتعلل ذلك بوضع الخير موضع الشر ، ووضع الصبر موضع اليأس (وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا) .

(١) أسباب النزول ٨٤

والأمر الإلهى (وعاشروهن بالمعروف) ينبذ الهوى ، ولا يجعل له لدى النفس سبيلا ، فإن حدثت الكراهية فالصبر يلازمها، وعلة ذلك (فعسى ...) (أقيمت مقام الجزاء للإيذان بقوة استلزامها إياه ، فإن (عسى) لكونها لإنشاء الترجى لا تصلح للجوابيه ، وهى هنا تامة رافعة لما بعدها مستغنية عن الخبر ...)(١)

ومناط المقاربة والرجاء هنا (أن تكرهوا شيئاً ويجعل الله فيه خيرا كثيراً) المعطوف والمعطوف عليه .

أى أن الكراهية التى تقع فيها النفس أو تكاد ، هو رجاء أن يكون فى ذلك خير ...

لذلك عبر بـ (عسى) لأن المقصود هو الإرشاد إلى إعماق النظر ، وتغلغل الرأى فى عواقب الأشياء ، وعدم الاغترار بالبوارق الظاهرة(٢) ...

ـ والرجاء دائماً يحتاج إلى صبر ودأب، وأحوال النساء تستدعى ذلك، وقدرة الله كفيلة بجعل الخير الكثير فيما يراه الناس شراً .

والتعبير بـ (عسى) هنا فيه تثبيت للنفس ، وإطماع لها فى خيرية ما تنفر منه أيًا كان ذلك ، ومن ثم عبر بقوله (شيئا) دون تقييد بالزوجات ، لتكون الفائدة أعم ، والإرشاد أشمل ، وإن كان سياق الآيات يتحدث عن شأن النساء ، إلا أن الآية الكريمة أرادت أن تحقق دلالة الاتساع والشمول فى (عسى) ، وأن رجاء الخير فيها عام وشامل ...

---

(١) ينظر تفسير أبى السعود ١٥٨/٢ وروح المعانى للألوسى ٢٤٣/٤

(٢) ينظر تفسير التحرير والتنوير ٢٨٧/٤

= يتوافق ذلك مع إسناد جعل الخير فيه إلى الله سبحانه (ويجعل الله فيه خيراً كثيرا) ، فهو سبحانه بقدرته وهيمنته قادر على إنشاء الخير فيما ترونه شراً .

ـ ولما أسند جعل الخير إليه سبحانه لم يذكر مقابله، وهو الشر كما سبق فى آية البقرة (وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم) .

وذلك (لأن المقام فى سورة البقرة بيان الحقيقة بطرفيها) فهم يخافون من القتال ويرغبون القعود فبين لهم أن الأمر على عكس ما يرونه، فى القتال نفع وخير ، وفى القعود تخاذل وضعف يؤدى إلى عدم الامتثال لأمر الله ، وذلك ما يترتب عليه كل شر .

فالقتال بعده أمن بكسر شوكة العدو ، والقعود بعده شر لأنه يؤدى إلى استخفاف العدو بهم وإطماعه فيهم ...فالأمر هنا يحتاج لذكر الطرفين لتقديرهما فى النفس .

أما المقام فى آية النساء هذه فهو لبيان حكم من حدث بينه وبين زوجه ما يؤدى إلى الكراهية دون نظر إلى ميله لغيرها فالأمر لا يحتاج إلى ذكر المقابل ...

= وهكذا كان الفرق بين السياقين ، ذلك الذى أدى إلى تكرار (عسى) هناك لتحقيق كل من الأمرين ، وإفرادها هنا ؛ لأنها تحث على ترجى الترابط وتوطيد العلاقة بين الزوجين .

* * *

٣ ـ الشاهد الثالث فى هذا المقام :

ورد فى قوله تعالى « فأما من تاب وآمن وعمل صالحاً فعسى أن يكون من المفلحين » (القصص ٦٧)

لاريب أن هذا إصلاح للنفوس وترغيب لها فى التوبه ، وحض عليها ، لأنه ذكر ذلك بعد توبيخات متباينة للمعرضين عن الإسلام كقوله تعالى :

... أولم نمكن لهم حرماً آمنا .. ؟

... وما عند الله خير وأبقى أفلا تعقلون ... ؟

... أين شركائى الذين كنتم تزعمون .. ؟

... ويوم يناديهم فيقول ماذا أجبتم المرسلين ؟

بعد هذا الزجر عن المعاصى فصّل كيفية الوصول إلى الفلاح ثم دعا إلى الإطماع فيه (فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فعسى أن يكون من المفلحين)، أى كانت توبته نظرية وعملية ، ولايكون الفلاح إلا بذلك ، ومن ثم عبر بـ (عسى) ، قال الزمخشرى :

(وعسى من الكرام تحقيق ويجوز أن يراد ترجى التائب وطمعه كأنه قال : فليطمع أن يفلح)(١) .

ولما كان الفلاح أعلى المنازل وأرقاها عبر بالكون الدال على الثبات

(١) الكشاف ١٨٨/٣

أى يتكون من جديد ، ويفشأ نشأة جديدة ، يستبدل فيها ذل الشرك ومهانته بفلاح الإيمان ومهابته ...

وتحدث عن هذا الفلاح بعد أن بلغ الكرب بالمشركين ذروته « فعميت عليهم الأنباء يومئذ فهم لا يتساءلون » (القصص ٦٦)

وذلك لأن الفلاح منزلة عالية تقابل أدنى المنازل الناجمة عن الشرك والعصيان ، ودلالة الرجاء فى (عسى) هى التى تصل إليها ، وتجعلها تنمو وتدوم بدوام الرجاء وشدة الطمع فى عطاء الله الذى لاينفد عطاؤه .

(وإنما لم يقطع له بالفلاح وإن كان مثل ذلك فى مجارى عادات الملوك قطعاً ، إعلاماً بأنه لايجب عليه سبحانه شىء ليدوم حذره ويُبتغى قضاؤه وقدره فإن الكل منه)(١) .

وهكذا كان مقام (عسى) فى هذه الشواهد الثلاثة موجها ورادعاً ودافعاً إلى الحق .

(١) نظم الدرر ٣٣٨/١٤

٢ ـ مقام الدعوة إلى النظر والاعتبار :

يتجلى ذلك فى قول الله تعالى :

« أولم ينظروا فى ملكوت السموات والأرض وماخلق الله من شىء، وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون » (الأعراف ١٨٥)

لابد من وشيجة بين مطلع الآية وأداة الترجى فيها ، أى أن سر هذا الإنكار (أو لم ينظروا) هو الإشفاق عليهم من اقتراب الأجل ، وهم على حالتهم من الجحود والعناد والغفلة ...

واقتراب الأجل واقع لا محاله ، لذلك عبر معه بـ (عسى) ، لأنها ـ كما سبق ـ لما هو خليق وجدير بأن يكون ، والمعنى كما قال الزمخشرى « وأنه عسى ، على أن الضمير ضمير الشأن ، والحديث عسى أن يكون قد اقترب أجلهم ...(١) »

= وإذا كان التعبير بـ (عسى) يطمعهم فى النظر والتأمل والاعتبار إشفاقا عليهم فإن فيها أيضا (تنبيه لهم على التفكر فى اقتراب الأجل لعلهم يبادرون إليه وإلى طلب الحق وما يخلصهم من عذاب الله قبل مقانصة الأجل(٢) .

---

(١) الكشاف ٢/١٣٣

(٢) ينظر البحر المحيط ٤/٤٣٢

ولما كان المشفق منه (قد اقترب أجلهم) واقعا محققا ، إن عاجلا وإن آجلا ، بدليل التعبير بـ (عسى) ومادة الكون (أن يكون) الدالة على الثبات ، والأدلة الدافعة إلى الإيمان ساطعة جلية (... ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شىء) .

لما كان الأمر كذلك جاء التعبير بقوله (ينظروا) أى نظر تأمل واعتبار ينهيهم عن العصيان ، ويردعهم عن الكفران .

وكما أن التعبير بـ (ينظروا) يبين جلاء أدلة التوحيد ، فإن التعبير بـ (عسى) يجمع بين التنبيه والتحقيق والتخويف ، ومن ثم قال سبحانه : (أن يكون قد اقترب أجلهم) ، ولاحقها بإنكار بعد إنكار (فبأى حديث بعده يؤمنون) ، ليكون ذلك أدعى للردع بعد أن بين لهم تحقيق وقوع الأجل ، ووقوعهم فى قبضة الحق فالأحرى بهم الخوف منه وتمنى الهداية إلى طريقه وهكذا تتآزر دلالة عسى مع الدعوة إلى النظر والاعتبار .

٣ ـ مقام خصوصيات الهداية والتوجيه إلى طريقها :

جاء ذلك مرة فى حق البشر الذين يعملون الصالحات ، يدعوهم إلى عدم الاغترار بها ، وقصر خشيتهم على الله وتمنى قبول العمل ، والحرص على مداومته ...

ومرة فى خطاب سيد البشر صلى الله عليه وسلم ـ لتعليم العباد تعليق العمل على المشيئة ، وذكر الله عند النسيان ، وتمنى الهداية إلى ظهور الأدلة المبينة للحقيقة .

وثالثة فى الحديث عن موقف أبى الأنبياء إبراهيم ـ عليه السلام ـ من أبيه حين قرر اعتزاله ورجا الله ألا يكون شقيا بدعائه ، وفيه من حسن الأدب ما فيه من التعريض بشقاوة من يدعوه فلم يستجب دون تصريح بذلك .

١ ـ أما الشاهد الأول :

فيتجلى فى قوله تعالى :

« ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر أولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون ، إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين » (التوبة ١٧ ، ١٨)

يتجلى من الآيتين دحض أعمال المشركين وثبوت أعمال المؤمنين وحثهم

على اقتران الخشية بالعمل ، وعدم الاغترار بالله تعالى ، وعدم القطع بنيل الثواب ليدوم التعلق بالله عز شأنه ...

تستجمع (عسى) هذه المعانى بدلالتها بين السياق ، لأنها هى التى بينت عاقبة هذه الأعمال .

أى أنهم بعد كل هذا (عسى أن يكونوا من المهتدين) .

وفى هذا قمة التبعيد لأعمال المشركين مهما عظمت ، عقب الزمخشرى على الآية بقوله :

« تبعيد للمشركين عن مواقف الاهتداء وحسم لأطماعهم من الانتفاع بأعمالهم التى استعظموها وافتخروا بها وأملوا عاقبتها بأن الذين آمنوا وضموا إلى إيمانهم العمل بالشرائع مع استشعار الخشية والتقوى ، اهتداؤهم دائر بين (عسى ولعل) ، فما بال المشركين يقطعون بأنهم مهتدون ونائلون عند الله الحسنى ، وفى هذا الكلام ونحوه ولطف للمؤمنين فى ترجيح الخشية على الرجاء ورفض الاغترار بالله تعالى(١) » .

بيان هذا : أن الآية الأولى جاءت تمهيداً للثانية ، لأنها نفت وأنكرت أعمال المشركين هذه مع ثبوت شهادتهم على أنفسهم بالكفر ، ثم حققت إحباط أعمالهم .

وبعد ذلك قصرت هذا العمل (إعمار المساجد) على المؤمنين العاملين ، جاء ذلك على طريقة التفصيل بعد الإجمال لأن الإيمان بالله واليوم الآخر يطوى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة مع اقتران الأعمال بخشية الله تعالى .

---

(١) الكشاف ٢/١٨٠

كل هـــذا لطف فى التوجيه مع الحض على العمل والخشية لتتجلى خصائص المهتدين ويبقى لهم العمل بها .

ومن ثم عبر فى حق المشركين بطريق القطع وبيـــان المصير الدائم (فأولئك حبطت أعمالهم وفى النار هم خالدون) لطمس معالم الإيمان فى قلوبهم ...

ولم يعبر فى حق المؤمنين بالقطع ، بل جعلهم بين خوف ورجاء دون قطع لهم بالهداية (فعسى أولئك أن يكونوا من المهتدين) إشارة إلى (أن العبد عند الإتيان بهذه الأعمال لا يقطع على الفوز بالثواب ، لأنه يجوز نفسه قد أخل بقيد من القيود المعتبرة فى حصول القبول(١)) .

= والتعبير بـ (عسى) هنا يتوافق مع الطبيعة البشرية ، فكما أن الإنسان لا يقطع بصواب كل عمله وعدم دخول شائبة نقص فيه فكذلك لا يقطع له بالهداية الخالصة .

وليس هذا إهدارا لشأنه ، بل هو لطف به يدفعه إلى رسوخ إيمانه .

= وسر اللطف هنا أنه لو قطع له بالهداية فى مقابلة القطع بإحباط أعمال المشركين ، ربما اتكل على عمله فيفقد الخشية ، والمقصود : الإرشاد إلى ترجيح جانب الخوف على جانب الرجاء ، وهـــذا هو المناسب للمقام(٢) .

وهذا الموقف يستدعى أن يأتى التعبير هكذا (من المهتدين) دون أن يجرد لهم الحكم بالهداية .

---

(١) تفسير الفخر الرازى ١١/١٦

(٢) ينظر روح المعانى للألوسى ٦٦/١٠

وكأن المشركين كانوا يزعمون أنه يجب على الله قبول العمل دون ربطه بالإيمان ، فقال فى حق المؤمنين (عسى) بتنزيل المتيقن منزلة المشكوك فيه لأمرين :

الأول : أنه سبحانه يتفضل على عباده ولا يجب عليه شىء مع أنه كتب على نفسه الرحمة .

والثانى : الترغيب فى ازدياد الإيمـــان ومداومة العمل وإخلاص الخشية لله .

٢ ـ الشاهد الثانى فى هذا المقام :

يتجلى له تعالى مخاطبا حبيبه صلى الله عليه وسلم :

« ولا تقولن لشىء إنى فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت وقل عسى أن يهدينى ربى لأقرب من هذا رشدا »

(الكهف ٢٣ ، ٢٤)

من خصوصيات الهداية ودواعيها هنا الاستجابة لتوجيهات الحق سبحانه وتعليق كل عمل على مشيئته لأنه :

« وما تشاءون إلا أن يشاء الله إن الله كان عليما حكيما »

(الإنسان ٣٠)

فإذا حدث سهو يلحق بالذكر ورجاء الهداية إلى سبيل الرشاد .

ولما كان المقام مقام توجيه وإرشاد قدم لفظ الهداية عل لفظ الربوبية والرحمة (عسى أن يهدينى ربى) ولأن النص على طلب الهداية الذى يعصم من نسيان ذكر الله ويهدى بسببه إلى الحق .

فـ (عسى) هنا لترجى الهداية والإطماع فيها ، وسياق الإرشاد إلى طريق الهدى يحتاج إلى ذلك ولا يصلح فيه القطع ليدوم الذكر وتستمر الرابطة بين العبد وربه ، لذلك عبر بها وجعل خبرها فعل الهداية رغبة فى دوامها وتجددها بتجدد الأحوال ، والأفعال .

ثم عبر بلفظ الرب (ربى) مع الإضافة إلى ياء المتكلم ، وفى هذا

من الخصوصية مافيه من إحضار عظمة الربوبيـــة وتفويض الأمر لله وحده ...

ـ ومقام الشفقة والرحمة كما يذكر فيه لفظ الرب الدال على التربيه والإحسان .

قال الألوسى : « وكأنه تهوين منه ـ عز وجل ـ لأمر قصة أصحاب الكهف كما هو نه ـ جل وعلا ـ أولا بقوله سبحانه : أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا » وهو متعلق بمجموع القصة(١)) .

وتنواءم كلمة (لأقرب) مع كلمة (عسى) هنا للدلالة على قوة الرجاء وشدة التعلق بالله سبحانه فى هذا الأمر وفى غيره من الأمور .

---

(١) روح المعانى ١٥/٢٥١

٣ ـ الشاهد الثالث فى هذا المقام :

يتجلى فى رجاء سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ أن يكون على الحق وألا يكون شقيا بدعائه تعريضا بمن أبو الإتصال بالله فكانوا له أعداء .

قال تعالى على لسان سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ لأبيه « قال سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا »

(مريم ٤٧ ، ٤٨)

سورة مريم من السور المكية التى قصدت إلى ذكر مواقف من قصص بعض الأنبياء ـ عليهم السلام ـ .

لم ترد فيها (لعل) ووردت فيها عسى مرة واحدة فى ختام موقف سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ من أبيه بعد توجيه ونصح مصحوبان بحسن الأدب ليقتدى به الناس فى الدعوة إلى الله .

ومن ثم لم ينته الإرشاد باليأس بل انتهى بالسلام والوعد بالاستغفار (سلام عليك سأستغفر لك ربى إنه كان بى حفيا) .

ذلك الختام الذى يقابل توعد أبيه « لئن لم تنته لأرجمنك واهجرنى مليا » فيه حث على الإذعان لأمر الله ، فلما لم تحدث استجابته اعتزلهم ومايعبدون من دون الله ودعا الله ورجاه ألا يكون شقيا بدعائه ، وفى هذا تعريض بشقاوة من يدعو غير الله ، أو يتخذ سواه وليا ...

قال الزمخشرى : « ... عرض بشقاوتهم بدعاء آلهتهم فى قوله :

« عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا » مع التواضع لله بكلمة (عسى) ومافيه من هضم النفس .

= فدلالة (عسى) بين السياق هنا تجمع بين التعريض بهم والإشفاق عليهم ، والرغبة إلى الله على سبيل الترجى ، المصحوب بالخوف الشديد ، ذلك الذى كافأه الله عليه فوهب له من يؤنسه ويشد عضده « فلما اعتزلهم ومايعبدون من دون الله وهبنا له إسحاق ويعقوب وكلا جعلنا نبيا » .

وتلك رحمة الله التى أعقبت رجاءه والرغبة فى عطائه .

* * *

نخلص من هذا إلى أن الذى يرجوه سيدنا إبراهيم ـ عليه السلام ـ هو مجرد تجنبه الشقاوة ... وذلك من الأدب والتحرج الذى يستشعره ، فهو لا يرى لنفسه فضلا ولا يتطلع إلى أكثر من تجنبه الشقاوة(١) ...

لذلك قال (عسى ألا أكون ...) أى كونا ثابتا يصدق قوله : « إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » (الأنعام ٧٩)

وعبر فى هذا الكون الذى يرجوه ثابتا (عسى) دون (لعل) لبيان شدة تعلقه بربه وأن مايدعو إليه جدير بأن يكون .

وسبق بيان كون (عسى) لما هو خليق وجدير وحقيق بأن يكون ، وأن (لعل) لا تصل إلى درجة التحقيق مثلها ، ولكن لها مقاماتها المناسبة لدلالتها ...

---

(١) ينظر فى ظلال القرآن ٢٣١٢/٤

المقام الرابع

مقام دحض الإنكار ودفعه

يتجلى هذا المقام فى مواطنين غرضها واحد وهو :

(إنكار البعث والساعة :

١ ـ قال تعالى :

« قل كونوا حجارة أو حديدا أو خلقا مما يكبرون فى صدوركم فسيقولون من يعيدنا قل الذى فطركم أول مرة فسينغضون إليك رؤوسهم ويقولون متى هو قل عسى أن يكون قريبا »

(الإسراء ٥٠ ، ٥١)

٢ ـ وقال تعالى :

« ولا تحزن عليهم ولا تكن فى ضيق مما يمكرون ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون »

(النمل ٧٠ : ٧٢)

وقبل أن نقف على دلالة (عسى) بين مقامها هذا نشير إلى أنها جاءت هنا فى سياق النصح والإرشاد ، قال تعالى :

« ولا تقف ماليس لك به علم ... »

« ولا تمش فى الأرض مرحا ... »

« وإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله ... »

كل ذلك كان تمهيدا لأحوال القوم فى سياق تعديد النعم ، قال سبحانه :

— أمن خلق السموات والأرض وأنزل لكم من السماء ماء فأنبتنا به حدائق ذات بهجة ...

— أمن جعل الأرض قرارا وجعل خلالها أنهارا وجعل بين البحرين حاجزا ...

— أى يجيب المضطر إذا دعاه ...

— أمن يهديكم من ظلمات البر والبحر ...

— أى يبدؤ الخلق ثم يعيده ...

ثم بينت الآيات بعد ذلك إنكار البعث ، ثم جاءت التسلية بقوله سبحانه : « ولا تحزن عليهم ولا تكن فى ضيق مما يمكرون » .

ثم جاء الجواب عن سؤالهم بطريقة ألذع وقعاً مما فى آية الإسراء :

« قل عسى أن يكون ردف لكم بعض الذى تستعجلون » .

أى لصيق بكم وقريب منكم .

ـــ ويتناسب هذا مع مقام تعديد النعم ، فبعد أن أوقفهم عليها وقد عموا فيها وجحدوها ، فاجأهم بهول اليوم وشدته ، ولصوقه بهم ، وكأنه يقف على رؤوسهم .

* * *

« قل لعبادى يقولوا هى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للانسان عدوا مبينا .. » (الإسراء ٥٣)

وكأنه مزال يعطيهم الفرصة لسلوك طريق النجاة ، وهذا يناسب هدوء الجواب ، ومنزلة الوعد فيه « قل عسى أن يكون قريبا » .

هذا بخلاف الموقف فى سورة (النمل) فقد أعقبه بقوله سبحانه :

« وإن ربك لذو فضل على الناس ولكن أكثرهم لا يشكرون وإن ربك ليعلم ما تكن صدورهم وما يعلنون » (النمل ٧٣ ، ٧٤)

وهذا يناسب إنكار معرفتهم بالله وجحودهم نعمه وإثبات معرفة الله بما تكنه صدورهم .

المهم أن دلالة (عسى) هنا بما فيها من الحركة توهم القوم تارة ببعده (عسى أن يكون قريبا) مع أنها للتحقيق من قبل الله ـ عز وجل ـ .

وتارة تلبسهم لباس الفكر وذل الانتظار (عسى أن يكون ردف لكم . .)

قال الزمخشرى : « استعجلوا العذاب الموعود فقيل لهم (عسى أن يكون) ردفكم إبعضه وهو عذاب يوم بدر(١) » .

وهكذا تتجلى دلالة (عسى) بين السياق .

(١) الكشاف ١٥٨/٣

المقام الخامس

مقام رجاء النفع أو التبنى

جاء ذلك فى موقف واحد تكرر لنبيين أولهما كان فى سن الصغر ، والآخر كان فى مرحلة الرضاعة ، وهما سيدنا يوسف ، وسيدنا موسى ـ عليهما السلام ـ .

١ ـ قال تعالى فى شأن سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ .

« وشروه بثمن بخس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين وقال الذى اشتراه من مصر لامرأته أكرمى مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وكذلك مكنا ليوسف فى الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون »
(يوسف ٢٠ ، ٢١)

٢ ـ وقال الله تعالى : (فى شأن سيدنا موسى ـ عليه السلام) :

« فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزنا ، إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين وقالت امرأة فرعون قرة عين لى ولك لا تقتلوه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا وهم لا يشعرون »
(القصص ٨ ، ٩)

نلحظ أولا أن موقف سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ نجم عن بيـــع وشراء ، وأن عداوته كانت مدبرة من إخوانه ، وليس هناك ثم عداوة مدبرة من الملتقط أوله .

أما موقف سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ فكان الهدف من التقاطه هو المحبة والتبنى دون علم بما هو مدبر من قبل الحكم الخبير .

لذا كان ختام موقف النبيين هنا مختلف ، ففى شأن سيدنا يوسف (عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولدا) وكان ذلك بعد الأمر بإكرام مكانه (أكرمى مثواه) .

وانصرف الحديث بعد تمنى نفعه أو تبنيه إلى التمكين له فى الأرض .

= أما موقف سيدنا موسى فكان بعد النهى عن قتله ، تلك الفعلة التى كانت سائدة فى عصر فرعون للذكور من الأطفال (لا تقتلوه) .

والسر فى ذلك رجاء النفع أو التبنى (عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً وهم لا يشعرون) .

أى لا يشعرون بأن العداوة والحزن ترتبتا على التقاطهم إياه .

فهلا كم على يده ؛ لأن منهجه يخالف منهجهم ودعوته تخالف دعوتهم ، هو مصلح وهم مفسدون ، ولكن أنى لهم الشعور ، وقد طبع على قلوبهم ؟!

= المهم أن مادبره البشر لم يفلح ، وما أراده الله كان ، فأخوة يوسف تأمروا على قتله وللتخلص منه ، وهيأ الله له من يبتغى فيه الخير والنفع ، وكان سبباً فى نجاته من الهلاك ...

وامرأة فرعون رجت فى موسى ـ عليه السلام ـ المحبة والتبنى ، فنهت

عن قتله واستجاب لها الملأ وهم لا يعلمون بما سيكون ، والله يعلم مدى تآمرهم عليه بعد ، ولذا ختم موقفهم هـــذا بقوله سبحانه (وهم لا يشعرون) ولعل السر فى أن موقف سيدنا يوسف ـ عليه السلام ـ لم يختم بعدم شعورهم كشأن موقف سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ هو أن يوسف ـ عليه السلام ـ كان قد اقترب من مرحلة الشباب فتجاوز الثانية عشرة من عمره ، وقد قص على أبيه رؤيته قبل ذلك « ... يا أبت إنى رأيت أحد عشر كوكبا والشمس والقمر رأيتهم لى ساجدين » ، ودار الحوار بينه وبين أبيه مما يدل على فطنته وفراسته .

فكان هذا القول من العزيز « عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً » ، لما تفرس فيه من مخايل الرشد والنجابة(١) .

أى أن هذا الحكم كان ناجماً عن شعور به ، ومن ثم لم يختم الموقف بقوله وهم لا يشعرون .

أما سيدنا موسى ـ عليه السلام ـ فكان رضيعاً والحالة هذه فكيف يشعرون بأنه سيكون عدواً أو حبيباً ؟ فضلا عن أن الله طبع على قلوبهم ، وسخر من تكبرهم وتجبرهم وبين لهم مدى علمهم بأنهم لا يفرقون بين ما يضرهم وما ينفعهم ، فعجزوا عن أن يروا فيه ما رأته امرأة فرعون التى ضربها الله مثلا للذين آمنوا « وضرب الله مثلا للذين آمنوا امرأة فرعون إذ قالت ربى ابن لى عندك بيتا فى الجنة ونجنى من فرعون وعمله ونجنى من القوم الظالمين » (التحريم ١١)

(١) روح المعانى ٢٠٧/١٢

رأت فيه بفراسة الإيمان دلائل النفع التى لم يرها أحد من القوم فنهت عن قتله وعممت نفعه (عسى أن ينفعنا ...) ولم يأت التعبير وهى لاتشعر، بل (وهم لايشعرون) .

ويصلح التأويل فيها : وهم لايشعرون بما شعرت به ، كما يصلح : وهم لايشعرون بأنه سيكون لهم عدواً وحزنا ، ولم يقل فالتقطته امرأة فرعون ليكون لها .. ؛ لأن موقفها يختلف عن موقفهم ، ووعيها يفوق وعيهم ولأن الله هداها بسبب الإيمان إلى توسم دلائل النفع والنجابة التى لم يعرفها آل فرعون ...

* * *

وعلى ذلك فدلالة رجاء النفع والمحبة فى موقف سيدنا يوسف كانت عن شعور ليس سببه الإيمان ، بل سببه أنه كان صبيا يتوسم فيه الصدق والأمانة وشارات النفع ... لذلك أمر الرجل بإكرامه ، وهو صاحب الشأن والمكانة حينئذ .

بخلاف دلالة (عسى) هـــذه فى موقف سيدنا موسى عليه السلام - فكان هذا الرجاء من الجانب الأضعف ، وهو جانب المرأة فطلبت النهى عن قتله وهى وجلة مشفقة ، ترجو أن تشبع رغبة فيها ولم تكن ذات ولد « قرة عين لى ولك ... »

وقيل : قدمت نفسها (لى) عليه (ولك) لعلمها بحب فرعون إياها ، واهتمامه بمصلحتها وأنها أهم عنده من مصلحة نفسه(١)

ولكن : نلحظ أنها لم تكتف بهذا فعممت الطلب فى النهى عن قتله

(١) روح المعانى ٢٠/٤٨

(لاتقتلوه) حتى لايكلف أحداً بقتله حملا للكلام على حقيقته ، لأنها لو قالت لاتقتله لربما فهم لاتقتله بنفسك ، وهو لايقتل بل يتسبب فى ذلك بأمره ...

= وصرفت بيان نفعه من الخصوص إلى العموم (عسى أن ينفعنا) كل ذلك للحرص على تلبية رغبتها فاستجابوا وهم لايشعرون .

إذن هى شعرت بنفعه بما فيها من فراسة الإيمان ، وهم لايشعرون بما يحدث لهم منه بعد ذلك وأنه كما قال الحق سبحانه :

« فالتقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزنا ... »

وقد تحقق لها ما أرادت .

قال العلامة ابن كثير : « وقوله (عسى أن ينفعنا) وقد حصل لها ذلك وهداها الله به ، وأسكنها الجنة بسببه ، وقوله (أو نتخذه ولداً) ، ونتبناه ، وذلك أنه لم يكن لها منه ولد ...(١) »

ذلك الذى دعاها إلى أن تقول (قرة عين لى ولك) وهكذا تختلف دلالة (عسى) تبعاً للمقام وإن تقارب السياق ...

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣/٣٨١

المقام السادس

مقام تعليم الآداب الإسلامية

جاء ذلك فى قول الله تعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون » (الحجرات ١١)

سورة الحجرات من بدايتها إلى نهايتها تهذيب وتعليم وتأديب وتوجيه

يتجلى التهذيب فى فاتحتها (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدى الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم ، يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) .

والتعليم :

« يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على مافعلتم نادمين » .

وكذلك :

« وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما . . . الآية »

والتأديب :

فى شاهدنا هذا « ... لا يسخر قوم من قوم . . »

والتوجيه :

« يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا . . . إلخ الآية

هذا توجيه وإصلاح به تستقيم النفوس وتأمن القلوب وتسلم الألسنة، ويسلم أصحابها من أن يكبوا على مناخرهم فى نار جهنم .

وهكذا تترابط عناصر السورة ، وتأتى (عسى) واسطة العقد فى هذه المواقف ، بل فى أشدها ؛ لأن هذا الذى يستهين به الناس (السخرية — اللمز — والنبز) يحسبونه هينا وهو عند الله عظيم ، ينطقونه بألسنتهم ولا يعلمون عاقبته .

ومن ثم تكررت (عسى) فى بيان الخيرية ، ترغب فى الإقلاع عن هذا الأمر ، وأن المسخور منه فعلا أفضل عند الله من الساخر ، ولا سيما إذا كانت السخرية فى غيبته ، فالله يتولى الدفاع عنه ...

وسبق أن (عسى) لما هو جدير وخليق بأن يكون ، ومن هنا يتجلى معنى التحقيق فى دلالة (عسى) ذلك الذى به يُرهب الناس مانهت عنه الآية فرب مسخور منه أفضل عند الله من الساخر .

ولما كان الموقف جد خطير وكثير خاطبت القوم مرة تقصد بهم الرجال خاصة ، وخاطبت النساء ثانية لتقتلع هذه الأفعال من جذورها .

= قال العلامة البقاعى : ولمـــا كان إطلاق القوم لمن كان فيه أهلية المقاومة وهم الرجال قال معبراً عما هو من النّسوة بفتح النون أى ترك العمل (ولا نساء من نساء) .

ثم علل النهى بقوله (عسى) أى ينبغى أن يخفن من (أن يكن) المسخور بهن خيرا منهن أى الساخرات (١) .

وفى هذا التكرار أيضا استفظاع للشأن الذى كانوا عليه ، ولأن مشهد الساخر لا يكاد يخلو ممن يتلهى ويستضحك على قوله ...(٢) .

ومن هنا أعقبها بالنهى عن اللمز والتنابز بالألقاب ، وذلك ضرب من السخرية إلا أنه جىء به بعدها من باب التفصيل بعد الإجمال .

وسره : أن السخرية تجرى فى أبواب كثيرة أقواها هذا الباب (ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب) .

ويختم الموقف بالتنفير من ذلك (بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان) . والتحذير منه (ومن لم يتب فأولئك هم الظالمون) .

* * *

ومن فروق التعبير الجديرة بالذكر فى هذه المقاصد التى اشتملت عليها السورة : أنه جاء التعبير بـ (لعـــل) فى باب الحث على الإصلاح (إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم واتقوا الله لعلكم ترحمون) (الحجرات ١٠)

(١) نظم الدرر ١٨/٣٧٥
(٢) ينظر الكشاف ٣/٥٦٥

لأنه فعل يتعلق بالغير ، فلا يصلح معه التعبير بـ (عسى) التى هى أقرب إلى التحقيق من (لعل) .

وسبق بيان كون (لعل) تقريب وإطماع دون التحقيق وتأكيد القول أما (عسى) فتدل على قرب وإمكان(١) .

أى أن الإنسان قد يدعو إلى الإصلاح رثاء الناس ، وقد يكون صادقا فى إصلاحه ، ونسبة ذلك أقل فى حياة البشر كما نلمسها اليوم فى حرص الإنسان على أن يكون ذا صيت وشهرة بين الناس أكثر من حرصه على أن يكون أقوى تعلقا بالله ـ عز وجل ـ وهذا من ضعف الإيمان .

= أما نهى النفس عن السخرية من الغير فدرجة الإخلاص فيه أقوى ، والتظاهر بها لا يكون ، وقوة الإيمان هنا هى السلطان على النفس .

= ولذلك جاء التعبير بـ (لعل) فيما يتعلق بالغير ، ولكل أداة موطنها المناسب لسياقها ومقامها ...

(١) ينظر معجم مقاييس اللغة ٤/١٥

بقى من شواهد (عسى) فى القرآن الكريم شاهدان

جاءت فيهما مسندة إلى ضمير الجمع ، ودخلت عليهما هل الاستفهامية ، لتقرر فى الأول حقيقة كائنة ثابتة ، وتحذر فى الثانى وتنذر من عاقبة لا تطاق بسبب التخلى عن أمر الله - عز وجل - ولكل شاهد مقامه :

الأول :

مقام تقرير الحقائق وكشفها

وذلك فى قوله تعالى :

« ألم تر إلى الملأ من بنى إسرائيل من بعد موسى إذ قالوا لنبى لهم ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله قال هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا قالوا ومالنا ألا نقاتل فى سبيل الله وقد أخرجنا من من ديارنا وأبنائنا فلما كُتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين » (البقرة ٢٤٦)

« عسيتم » هنا بمعنى قاربتم ، وفى الآية اهتمام بشأن القتال أيضا ، بدليل أنه وقع الحديث عن ثبوته وسطا بين (عسى) وخبرها ، والمراد بدخول

الاستفهام على (عسى) هنا كما قال أبو السعود : (تقرير أن المتوقع كائن)(١) .

أى توقع عدم مشاركتهم فى القتال ، وإن كان مكتوباً عليهم ...

وقال الرازى : « الاستفهام للتقرير المؤكد ، فإنه لو قال على سبيل الإخبار (عسيتم إن توليتم) لكان للمخاطب أن ينكره ، فإذا قال بصيغة الاستفهام ، كأنه يقول : أنا أسألك عن هذا وأنت لا تقدر أن تجيب إلا بنعم أولا فهو مقرر عندى وعندك(٢) »

أى أن توقعه جبنهم عن القتال ثابت ، وهذا ما كان مقررا فى نفوسهم أيضا ، لأنه لما كتب عليهم ، تولوا إلا قليلا منهم ...

ولم يكن توليهم ضعفا بل كان مرضا فيه من الحرص على النفس بدليل التعبير بلفظ (الملأ) الدال على قوتهم وكبريائهم ، وجراءتهم البادية فى قولهم (ابعث لنا ملكا) وخداعهم الدال على حماقتهم حين قالوا (نقاتل فى سبيل الله) لذلك خاطبهم ببيان توقع جبنهم وتقرير مايجرى فى نفوسهم وقد تحقق بتوليهم وإعراضهم بعد (فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم وهم معرضون) .

وإن كان هدف التعبير بـ (هل) تحقيق فعلتهم هذه وتثبيتها ، فإن التعبير بـ (كتب) يبين أن التقاعس عنه ضرب من الهلاك .

ودلالة (عسى) هنا بإسنادها إلى ضميرهم خاصة ، تبين أن انصرافهم

---

(١) تفسيره ١/٢٣٩

(٢) تفسيره ٢٨/٦٤

عن الحق وعدم اهتمامهم بما كتب عليهم أصحابهم على سبيل التدريج .

فكما أن (عسى) فى باب الرجاء تدفع الراجى إلى تقربه من المرجو شيئاً فشيئا وتطعمه فيه آونة بعد أخرى حتى يكاد يصل إلى مرحلة اليقين .

فكذلك هى هنا تبين جفاءهم شيئا فشيئا حتى وصل إلى مرحلة التقرير والتثبيت .

ويجلى ذلك أيضا استنكارهم ترك القتال بقولهم (ومالنا ألا نقاتل فى سبيل الله . . .) وقولهم فى البداية (ابعث لنا ملكا نقاتل فى سبيل الله) .

كل هذا وفى نيتهم التولى والإعراض عن مكر وقوة ، لا عن ضعف وخوف ، بدليل التعبير بقوله (عسيتم) بفتح السين .

قال الحرالى : « بكسر سين (عسى) وفتحها لغتان وعادة النحاة ألا يلتمسوا اختلاف المعانى من أوساط الصيغ وأوائلها . . . فالكسر حيث كان منبئ عن باد عن ضعف وانكسار ، والفتح معرب عن باد عن قوة واستواء ، - انتهى - .

قال البقاعى : فكأنه صلى الله عليه وسلم فهم أن بعضهم يترك القتال عن ضعف عنه ، وبعضهم يتركه عن قوة ، ولذلك نفى الفعل ولم يقل تعجزوا .

قال الحرالى : « فأنبأهم بما آل إليه أمرهم فلم يلتفتوا عنه وحاجوه وردوا عليه بمثل سابقة قولهم ، ففى إشعاره إنباء بما كانوا عليه من غلظ الطباع وعدم سرعة التنبه(١) » .

---

(١) نظم الدرر ٣/٤١٠

وعلى هذا ففتح سين (عسى) هنا دليل قوتهم ، وذلك يبين قمة خداعهم ومكرهم بقوله (فى سبيل الله) وقولهم (ومالنا ألا نقاتل) ... وقوله لهم (ألا تقاتلوا) دليل معرفة قوتهم .

ومن ثم كانت دلالة (عسى) بين سياقها الإحاطة ببواطن القوم وظواهرهم .

* * *

الثانى :

مقام الإعراض وبيان عاقبته

وذلك فى قوله تعالى :

« ويقول الذين آمنوا لولا نزلت سورة فإذا أنزلت سورة محكمة وذكر فيها القتال رأيت الذين فى قلوبهم مرض ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت فأولى لهم * طاعة وقول معروف فإذا عزم الأمر فلو صدقوا الله لكان خيراً لهم * فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم * أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم » (محمد ٢٠ : ٢٣)

سورة محمد صلى الله عليه وسلم من السور المدنية التى تحرض المؤمنين على قتال الكافرين مع مافيها من ضياع أعمال الكافرين واقتلاعها ، وثبات أعمال المؤمنين كلما وقعت .

لم تذكر فيها (لعل) وجاءت فيها (عسى) مرة واحدة فى سياق اقتفت المصحوب بتوبيخ الذين فى قلوبهم مرض ، وتحذيرهم من الإفساد فى الأرض .

أى أن الحديث كان قبل ذلك عنهم ببيان صدهم وكفرهم وضلا لهم والطبع على قلوبهم ، ولما عظم فسادهم التفت إليهم مخاطباً :

(فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم ...)

تنبيها على تناهى مقتهم وتبعيدهم ، وتخصيص اللعنة بهم (أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها) ؟

ومن ثم كان خطابهم موحيا بالتهديد والتقريع وسوء العاقبة ، وهذا التعبير (فهل عسيتم) يفيد ماهو متوقع من حال المخاطبين ويلوح بالنذير والتحذير ، احذروا فإنكم منتهون إلى الجاهلية التى كنتم فيها تفسدون فى الأرض وتقطعون الأرحام كما كان شأنكم قبل الإسلام .

وإذا كانت أحوالهم وأفعالهم تبين أنهم إن تولوا أمرا من الأمور أفسدوا فى الأرض حتى يصل بهم ذلك إلى تقطيع الأرحام تكالباً على الدنيا وحرصا عليها بما لا يرضى الله .

إذا كان كذلك فلماذا جاء التعبير بـ (عسى) ولم يأت الكلام على طريق القطع ، أى بعد حالتكم هذه إن توليتم أفسدتم ؟ !

جواب ذلك :

أراد أن يزيدهم تبكيتاً وتوبيخاً وتحقيقا لسوء حالتهم .

والاستفهام بـ (هل) يحقق توقع الإفساد منهم ويقررهم به لأنه ثابت ومستقر فى قلوبهم ، ويزداد بيانا بتوليهم أمور الناس - لو حدث ذلك - أو بإعراضهم عن الجهاد وهذا دأبهم .

ولذلك فسر بعضهم (التولى) بالإعراض عن الإسلام والجهاد ، فالفعل لازم - أى فهل عسيتم إن أعرضتم عن الإسلام أن ترجعوا إلى ما كنتم عليه فى الجاهلية من الإفساد فى الأرض بالتغاور والتناهب وقطع الأرحام(١)).

---

(١) ينظر روح المعانى ٢٦/٦٨

ومن هؤلاء : أبو حيان حيث قال (وهذا التوقع فى (عسى) ليس منسوبا إلى الله تعالى ؛ لأنه عالم بما كان وما يكون ، وإنما هو بالنسبة لمن عرف المنافقين كأنه يقول لهم لنا علم من حيث ضياعهم ، هل يتوقع منكم إذا أعرضتم عن القتال أن يكون كذا وكذا (١) ؟

* * *

= وتفسير التولى بالإعراض عن القتال وجـــه يتناسب أيضا مع ماسيقت له السورة على الحث على قتال الكفار (فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ...)

ونحو ذلك من السورة ...

وهذا التفسير أقرب إلى سياق السورة ؛ لأن حديثها العام عن الجهاد فى سبيل الله ، وحديث الآية الخاص عن تقاعس المنافقين عن القتال رعباً وخوفا « ينظرون إليك نظر المغشى عليه من الموت ... »

ولكن يستقيم الوجه الأول فيها أيضا وهو ما ذكره الزمخشرى(٢) وغيره ، من أن المقصود بالتولى هو تولى الأمور ...

إن إعراض هؤلاء عن القتال أمر مفروغ منه مادام النفاق دأبهم ، والمهم هو تحقيق إفسادهم حين توليهم أمراً من الأمور وتبيان أن الإفساد فى الأرض شعيرة من شعائرهم .

ودلالة (عسى) تتوائم مع التفسيرين ؛ لأن عدم مشاركتهم فى القتال

(١) ينظر الكشاف ٣/٥٣٦

(٢) ينظر الكشاف ٣/٥٣٦

منتظرة ومتوقعة فى مفهوم الناس ومحققة فى علم الله ، وكذلك الشأن فى توليهم أمراً من أمور الناس يترقب منهم الإفساد عند من علم بشأنهم ، وهو محقق فى علم الله ، وهذا أيضا معنى قول العلماء (عسى) من الله واجب الوقوع ...

وهى هنا فى حق البشر تفيد التوقع .

والحمد لله رب العالمين ؟

الخاتمة

لاريب أن كلام الله ـ عز وجـــل ـ له خصوصيات فى لفظه ونظمه وإحكام عباراته وتراكيبه ليست لغيره من سائر الكلام ...

ـ والشىء الذى دخله حتى صار كذلك لن يرقى إلى كنهه عقل بشر ، ومايفعله الدارسون فى هذا الباب لايعدو أن يكون اجتهادات يفتح الله بها على من يشاء من عباده .

بعضهم يدرسها من الناحية الصوتية ، وبعضهم من ناحية الصيغة ، وبعضهم من ناحية دلالة الكلمة وإبراز خصائصها بين التراكيب ، وماشابه ذلك من أمور تتآزر فى خدمة بيان الله ـ عز وجل ـ ، وموقف طبائع البشر وأحوالهم من ذلك .

= وقد قال أحد العلماء : إن تراث الأمم هو ذات الأمم حتى كأنها هو ، وكأنه هى ، وإذا نظرنا إلى اللغة من حيث نسيج بنائها وأحـــوال صوغها ، وجدنا هذا النسيج وهذه الأحوال ، وهذا النظام فى جوهره طبائع القوم وأحوالهم الروحية والنفسية وطرائق تصورهم للحقائق وإبانتهم عنها(١) ...

والقرآن الكريم هو تراث الأمة الإسلامية يكشف أحوالها ويجلى طبائع الناس ويقص عليهم قصص السابقين ليعتبروا ويرتدعوا عن كل مايغير الحقائق التى يهدى إليها كتاب الله عز وجل .

= وإذا نظرنا إلى مقامات (عسى) فى سياق كلام الله ؛ ودلالتها بين

---

(١) أ.د/ محمد محمد أبو موسى فى مقدمة كتاب : الإعجاز البلاغى ص ٣

ذلك وجدناها فى كل مقام من المقامات السالفة تكشف عن أمر ما ، كان محققا واقعا بين الناس ، ويظهر طباعهم ، ويتحدث عن دواخلهم بكل مقومات الحقيقة ...

فمثلا فى قوله تعالى « كتب عليكم القتال وهو كره لكم ، وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم وعسى أن تحبوا شيئا وهو شر لكم والله يعلم وأنتم لا تعلمون » .

نستنتج من دراستها السابقة هنا أن (عسى) فى سياقها تكشف حقيقة كامنة فى نفوسهم، وأنهم فعلا كرهوا القتال وأحبوا القعود خوفا وحرصاً، والخير محقق فى الأول والشر كامن فى الثانى ، ولكنهم لا يعلمون .

ودلالة (عسى) هنا تطمع فى القتال عن يقين وثبات ، وتكسر شهوة النفوس ورغبتها فى البعد عنه ...

فالقرآن الكريم بلغته ونسجه وبنائه يكشف طبيعة القوم ويهديهم بطريق الإطماع إلى التى هى أقوم ، والتعبير يحوّل إباء نفوسهم ، رجاء وطمعا أن يكون الخير فيما أراده الله ، وهو فيه فى حقيقة علم الله ، ولكن جاء بـ (عسى) دون القطع بالخير هنا والشر هناك ، لتظل القلوب مرتبطة بالله - سبحانه - طامعة فى رحمته وإحسانه وفضله ...

- وفى قوله تعالى حكاية عن أحد أنبياء بنى إسرائيل لقومه « هل عسيتم إن كتب عليكم القتال ألا تقاتلوا ... » الآية .

يبين الكلام بدخول أداة الاستفهام على (عسى) تقرير أن المتوقع كائن ، وهذا هو الذى كان فى نفوس القوم حينئذ ، بدليل « فلما كتب عليهم القتال تولوا إلا قليلا منهم والله عليم بالظالمين » .

فطبيعة القوم كامنة بين كلام الله أيضا ، يكشف من أحوالهم ما لا يعرفونه هم ، بدقة بنائه وتصويره ...

وقد يأتى التعبير بـ (عسى) يقرر حقيقة كامنة فى علم الله ، وهذا أيضا تصوير لواقع الحياة ، وإرادة الله - عز وجل - كقوله تعالى مثلا : « فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأساً وأشد تنكيلا » .

وكيف بأسهم كان مقدراً فى علم الله ، ولكن لم يقطع بوقوعه لتتجلى عظمة التكليف ، ويتأتى الأجر بعد طلب واشتياق ، وسبق بيان ذلك ...

وكذلك بينت الدراسة تصوير القرآن الكريم لموقف المستضعفين فى الأرض ، والحكم بأن مأواهم جهنم ... وموقف الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا ، ومجىء (عسى) مع عفو الله عن هؤلاء ، وكأنها تحرض المستضعف - حقا وصدقا - من الرجال ألا يركن إلى ذلك ويتغافل عن ذكر الله بقلبه وإن عجزت جوارحه عن الجهاد فى سبيله ...

وهكذا جلت الدراسة خصائص (عسى) ، وأسرار التعبير بها ، والفرق بين الرجاء فيها والرجاء فى (لعل) ، واجتهدت فى أن تبحث السر فى عدم إسناد (لعل) إلى اسم الجلالة فى القرآن الكريم كله إلا مرة واحدة ، هى قوله تعالى : (لا تدرى لعل الله يحدث بعد ذلك أمراً ..) (الطلاق ١)

وأن (عسى) على قلة شواهدها فى القرآن الكريم أسندت إلى اسم الجلالة (عسى الله) ست مرات ، وإلى لفظ الربوبية على الإفراد

(عسى ربى) مرتين ، ومع كاف الخطاب للمفرد (ربك) مرة واحدة ، وكانت فى مقام الرفعة الخاصة برسول الله - صلى الله عليه وسلم - « عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً » .

ومع ضمير الغائب مدة واحدة (عسى ربه) أى الذى تكفل بتربيته وتأديبه أن يصون أمره ، ويحفظ منزلته ، ويبدله أزواجا خيراً منكن إن حدث التطليق بسبب ميل القلوب عن الحق والتظاهر عليه صلى الله عليه وسلم .

ومع لفظ الجمع (ربنا) مرة واحدة حلتها آيات سورة القلم فى قصة أصحاب الجنة الدنيوية .. وسبق بيانها ودلالة (عسى) فيها .

ومع لفظ (ربكم) على طريق الخطاب ثلاث مرات :

(عسى ربكم أن يهلك عدوكم ...) .

(عسى ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا ...) .

(عسى ربكم أن يكفر عنكم سيئاتكم ...) .

الأول فى مقام التسلية ، والثانى فى مقام الترغيب والترهيب ، والثالث فى مقام النصح والإرشاد .

وكل هذا تصوير لدواخل النفوس وتنزيلها منزلة الراجى والطامع لتحظى بما كتبه الله - عز وجل - عن طيب نفس منها ...

- أما الشق الثانى من الدراسة وهو : مقامات (عسى) فيما ورد فى الحديث عن الخلق نحو (وعسى أن تكرهو - وعسى أن تحبوا ...)

فذكر لفظ (ربى) فى سياق شواهده مرتين ، مرة فى شأن سيد البشر

- صلى الله عليه وسلم - (وقل عسى أن يهدينى ربى لأقرب من هذا رشدا) وفصل فيه بين (عسى) واسمها ؛ لأن التركيز فيه على الهداية للصواب فى عدد أصحاب الكهف ، وسبق بيان ذلك .

وكذلك الشأن فى قوله تعالى « عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً » .

ومن هنا نستنبط أن (عسى) حين تأتى فى مقام الحديث عن بعض خصوصيات النبى - صلى الله عليه وسلم - يقدم خبرها على اسمها ، لأن النص هناك على الهداية ... وهنا على البعث على تلك الحالة التى جلتها الآية بعد ذلك ، وكون هذا وذاك من ربه أمر مفروغ منه فقدم ماهو أنهض ببيان شأنه ...

والمدة الثانية التى قدم فيها لفظ (ربى) فى هذا الشق من الدراسة جاءت فى موقف أبى الأنبياء سيدنا إبراهيم - عليه السلام - مع أبيه (عسى ألا أكون بدعاء ربى شقيا) وسبق بيانها .

وما عدا ذلك من شواهد هذا الجزء فى توجيه البشر .

ودعوتهم إلى النظر والاعتبار فى ملكوت الله سبحانه ، والإطلاع على درجات الهداية والفلاح ، ودحض إنكار البعث والساعة ، وبيان مقام رجاء النفع والتبنى والفرق بين الموقفين ، ومقام تعليم الآداب الإسلامية ، ذلك الذى أحاطت به سورة الحجرات على اختلاف مواقفها ...

وهكذا جلت الدراسة حقائق البيان الذى يكشف أسرار النفس الإنسانية ويعالج مواطن الضعف فيها ، ويحثها على رجاء الخير والازدياد منه .

وبذلك يكون شأن دراسة الأدوات بين السياق عنصراً قويا من عناصر الربط بين الأمة وتراثها ، ليكون تراث الأمة هو ذات الأمة ،

كما أن أدب الرجل هو الرجل وشعر الشاعر هو الشاعر لأنه يحلى طبعه ونفسه ، وكل أداة تحقق فى مقامها مالا تحققه صاحبتها حتى يتم المعنى وتتجلى خصائص بلاغته .

والله يهدى من يشاء إلى ما يشاء .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين .

د/ السيد محمد السيد سلام

فى شعبان ١٤١٧ هـ

بيان بأهم المصادر والمراجع

١ ـ الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .

٢ ـ أسباب النزول الواحدى .

٣ ـ أسباب النزول للسيوطى .

٤ ـ أسرار العربية لأبى البركات الأنبارى تحقيق محمد البيطار ، مطبوعات المجمع العلمى بدمشق ١٣٧٧ هـ .

٥ ـ أساس البلاغة للزمخشرى .

٦ ـ الأشباه والنظائر لمقاتل بن سليمان البلخى تحقيق د/ عبد الله شحاته .

٧ ـ أصول اللغة العربية بين الثنائية والثلاثية د/ توفيق شاهين .

٨ ـ البرهان فى توجيه متشابه القرآن للكرمانى تحقيق عبدالقادر عطا .

٩ ـ البرهان فى علوم القرآن للزركشى تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم .

١٠ ـ بصائر ذوى التمييز فى لطائف الكتاب العزيز — الفيروز أبادى .

١١ ـ التصوير الفنى فى القرآن الكريم سيد قطب .

١٢ ـ تفسير الفخر الرازى .

١٣ ـ » ابن كثير

١٤ ـ » البيضاوى

١٥ ـ » أبى السعود

١٦ ـ » التحرير والتنوير الشيخ محمد الطاهر بن عاشور

١٧ - تهذيب اللغة للأزهرى

١٨ - الجامع لأحكام القرآن الكريم للقرطبي .

١٩ - الجنى الدانى فى حروف المعانى للمرادى تحقيق د/ فخر الدين قباوة.

٢٠ - الخصائص لابن جنى .

٢١ - درة التنزيل وغدة التأويل للإسكافى .

٢٢ - دلائل الإعجاز للإمام عبد القاهر تحقيق الشيخ محمود شاكر .

٢٣ - دواوين :

المفضليات - الأصمعيات - امرؤ القيس - عنترة - النابغة الذبيانى - طرفة - زهير - كعب بن زهير - حاتم الطائى - الخنساء - الفرزدق - أبو فراس الحمدانى .

٢٤ - روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى للألوسى .

٢٥ - شرح ابن عقيل تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد .

٢٦ - شرح الكافية للرضى .

٢٧ - شرح المفصل لابن يعيش .

٢٨ - الصاحبي لابن فارس تحقيق السيد أحمد صقر .

٢٩ - عبقرية اللغة العربية الأستاذ محمد المبارك دار الفكر .

٣٠ - العين للخليل بن أحمد تحقيق د/ محمد المخزومى ، دار الرشيد .

٣١ - الفتوحات الإلهية ... للجمل .

٣٢ - فروق فى اللغة لأبي هلال العسكرى .

٣٣ - فى ظلال القرآن الشيخ سيد قطب .

٣٤ - القاموس المحيط للفيروز أبادى .

٣٥ - الكتاب لسيبويه تحقيق عبد السلام هارون .

٣٦ - كتاب الأزهية فى علم الحروف للهروى تحقيق : عبد المعين الملوحى .

٣٧ - الكشاف للعلامة الزمخشرى .

٣٨ - لسان العرب لابن منظور .

٣٩ - اللمع فى العربية لابن جنى تحقيق حامد المؤمن مكتبة النهضة .

٤٠ - المحرر الوجيز فى تفسير الكتاب العزيز لابن عطية تحقيق المجلس الأعلى بفاس .

٤١ - المحكم والمحيط الأعظم فى اللغة لابن سيدة : تحقيق مصطفى السقا .

٤٢ - معترك الأقران فى إعجاز القرآن للسيوطى ضبط وتصحيح أحمد شمس الدين .

٤٣ - معجم ألفاظ القرآن الكريم الشيخ محمد فؤاد عبد الباقى .

٤٤ - معجم ألفاظ القرآن الكريم مجمع اللغة العربية .

٤٥ - معجم مقاييس اللغة لابن فارس تحقيق عبد السلام هارون .

٤٦ ـ المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى .

٤٧ ـ منهج البحث البيـــانى عن المعنى القرآنى فى سياق السورة
أ . د/ محمود توفيق سعد .

٤٨ ـ النبأ العظيم د/ محمد عبد الله دراز .

٤٩ ـ النظم الفنى فى القرآن الكريم الأستاذ/ عبد المتعال الصعيدى .

٥٠ ـ نظم الدرر فى تناسب الآيات والسور للبقاعى .

الموضوع	الصفحة
مقـــدمة	٣
مدخـــل	
حول أهمية دراسة الأدوات فى سياق الأساليب .	٩
(عسى)	
بين التأصيل الشعرى والإستعمال القرآنى .	١٥
تأصيل الدلالة فى (عسى) .	١٨
بين (عسى) و(كاد) .	٢١
معانى (عسى) فى بيان العلماء .	٢٤
١ ـ الطمع والإشفاق .	
وجه التعبير بالاشفاق دون الخوف .	٢٤
٢ ـ الترجى والطمع .	٢٥
٣ ـ الطمع والترجى .	٢٦
فروق بين تقديم أحدهما على الآخر .	٢٦
٤ ـ الشك واليقين .	٢٨
٥ ـ الرجاء والإشفاق .	٢٩

الموضوع	الصفحة
دلالة هذه المعانى .	٣٠
(عسى) بين المكى والمدنى .	٣١
وجه مجيئها فى المكى على قدر مجيئها فى المدنى .	٣٣
دراسة نماذج لبيان ذلك .	٣٥
= المقامات البلاغية لدلالة (عسى) .	٣٩
أولا : مقاماتها فيما ورد حديثا عن الله « عز وجل » .	٣٩
١ - مقام التسلية والحث على الجهاد .	٤١
شواهد ذلك .	٤٣
وجه الترابط بين الشاهد والبيان الذى نسجت عليه السورة .	٤٤
الشاهد الثانى وعلاقته بالأول .	٤٥
موازنات وخصائص بين الشاهدين وهما من سورة واحدة .	٤٧
الشاهد الثالث :	
فروق بين مجىء (عسى) فى قصة نبى واحد ومجىء (لعل) فى قصة خمسة أنبياء فى السورة ذاتها .	٤٨
مجىء (لعل) و(عسى) مع اسم الجلالة والربوبية .	٥٠
٢ - نوع التسلية والجهاد فى الشاهد الرابع .	٥٣
علاقة ذلك ببناء السورة .	٥٥
٣ - مقام التحذير من موالاة الأعداء .	٥٧
شاهد ذلك .	٥٨

الموضوع	الصفحة
أسرار النهى ودلالة (عسى) بين ذلك .	٥٩
٣ - مقام الاعتذار والتذلل .	٦١
دلالة (عسى) فى شاهديه .	٦٤
٤ - مقام التبتل والرغبة إلى الله .	٦٦
مجيئه فى السياق القصصى .	٦٧
دقائق التعبير فى موقف سيدنا يعقوب ...	٦٩
دلالة (عسى) فى تصوير حالة الرجل المؤمن وصاحبه المتبطر .	٧١
دلالة (عسى فى تعلق سيدنا موسى بربه وقد تآمر الملأ عليه ، وسر التعبير بلفظ (ربى)	٧٢
٥ - مقام الترغيب والترهيب .	٧٤
دلالة (عسى) بين ذلك .	
بيان تناسب هذا الموقف مع حالة القوم .	٧٥
٦ - مقام الرفعة الخاصة والإرشاد العام .	٧٧
سر الخصوصية هنا .	
مجىء (عسى) مع الجزاء ، ولماذا نزل النبى - صلى الله عليه وسلم - منزلة الراجى .	٧٨
سر تأخير لفظ (الرب) هنا وتقديمه فى شواهد أخرى .	٧٨

رقم الإيداع ١٩٩٧/٢٦٨٠
الترقيم الدولي I.S.B.N. 977 - 19 - 2700 -0

دار السعادة للطباعة
١٦ شارع البلدي - باب الخلق
ت : ٥١٠٨٣٧٩